obeikandl.com

obeikandl.com

في عام ١٩٦٥ بدأ الشاعر الكبير صالح جودت في نشر سلسلة من المقالات في مجلة الكواكب تتضمن بعض ذكرياته تحت عنوان الحب والفن يتناول فيها بعض قصص الحب التي مرت ببعض الأدباء الذين مروا بتجارب حب مع الفنانات في مصر في النصف الأول من القرن العشرين.

وحتى لا تضيع هذه الصفحات الثرية من ذاكرة تاريخ الأدب والفن أردت أن أحفظها من الضياع لأذكر الناس كيف كان وجه الحياة المصرية في تلك الحقبة المهمة من تاريخ مصر، وكيف كانت المشاعر والعواطف والأحاسيس، إنها صفحات حية من سيرة شعراء وأدباء وفنانين أحبوا فصدقوا ، تناول فيها حكايات الحب في حياة شاعر الأطلال ناجي ، والشاعر أحمد رامي ، وغيرهما من نجوم ونجمات عالم الأدب والسياسية والفن والذي شاء ألا يذكر الأسماء صريحة بل ترك ذلك للقارئ المتابع لسيرة هؤلاء أن يتعرف على شخصياتهم، وميزة هذه الحلقات أنها كانت بقلم شاعر وأديب وكاتب صحفي اقترب من الحياة الفنية والأدبية والاجتماعية في مصر لأكثر من ثلاثة عقود من الزمان، فخبرها وعرف الكثير من أسرارها وخفاياها.

الهاربة

في سنة ١٩٥٤ .. كان أمير القصة الراحل، سومرست موم، هنا في القاهرة، يقضي أياما من الشتاء تحت شمس مينا هاوس الدافئة.

وسعيت إليه، وتعرفت إليه، وجلست معه أكثر من جلسة، وتحدثنا طويلًا في كل شيء.

وكان من أبرز ما يأخذني في الرجل، كثرة إنتاجه.

وسألته في ذلك فقال لي إنه يكتب بمنتهى السرعة، وبمنتهى السهولة، ولا تعوزه المادة القصصية أبدًا....وضرب لى مثلًا قد يبدو غريبًا لأول وهلة.

قال لي : ما عدد سكان مصر؟

قلت له: إنهم أربعة وعشرون مليونا ... "كانوا نحو ذلك سنة ١٩٥٤".

قال : إذن عندكم ٢٤ مليون قصة، كل منها تختلف عن الأخرى .... وكل منها تصلح مادة لكاتب القصة .. ما على الكاتب إلا أن يتحدث إلى أي إنسان ... أي إنسان .. حتى ولو كان من الصم أو البكم أو البله .. ويتوغل في أعماقه ... ويدرس شخصيته وبيئته ... حتى يظفر بقصة جديدة.

نسيت هذه الحكاية التي قالها لي سومرست موم يومًا ما.

وذات يوم من أيام الربيع، عبرت بي محنة عاطفية حجبت رونق الربيع عن عيني وقلبي، فقررت الهروب من ميدان المحنة وسافرت إلى لبنان ألتمس هدوء النفس وتوغلت في ربوعه حتى أدركت تلك الضيعة النائية في "نبع الصفا" ... ونزلت في فندق صغير، لا يزيد عدد غرفه على خمس، تحيط به حديقة تلمع بين شجيراتها المصابيح الصغيرة الحمراء في شهر مايو ..

موسم الكرز ... قبيل الصيف

ولم يكن بالفندق من النزلاء غير اثنين : راهبة شابة في حوالي السبعة والعشرين .. وأنا .. وثالثنا صاحب الفندق، وهو شيخ لبناني لطيف، قضى زهرة العمر في القاهرة. وادخر شيئًا اقتنى به هذا الفندق الصغير لينعم فيه بالهدوء في شيخوخته.

ولست أدري لماذا قفزت إلى ذاكرتي حكاية سومرست موم لأول مرة، عندما وقعت عيناي على وجه الراهبة الشابة.

إن لكل إنسان قصة .. قصة تستحق أن يكتبها كاتب.

وهذه الراهبة .. بوجهها النقي ... الذي يبدو فوق مسوحها السوداء كالقمر على صفحة الليل ...لابد أن تكون وراءها قصة .. ولا بد أن تكون قصة مثيرة ... اختارت لها هذه النهاية: اعتزال الحياة والإيواء إلى رحاب الله.

كم تمنيت يومئذ أن أعرف هذه القصة .. لكن صاحبتها لم تكن على استعداد لأن تمنحني أو تمنح غيري شيئًا أكثر من تحية في الصباح وابتسامة في المساء ... وتتفرغ بين هذه وتلك لإبرة التريكو التي تشغل بها سحابة يومها من أوله إلى آخره.

وذات ليلة ... ونحن على مائدة العشاء في شرفة الفندق المطلة على الحديقة، دق جرس التليفون وقفز "عم إلياس" إلى الداخل ... وعاد بعد لحظة يقول التليفون لي ... من القاهرة

القاهرة!

إن إنسانة واحدة في القاهرة هي التي تستطيع بقدرتها وذكائها وإصرارها أن تهتدي إلى عنواني في أعماق جبال لبنان .. عن طريق السفارة ... أو القنصلية .... أو الشرطة .... أو حتى عن طريق الشيطان.

وهذه الإنسانة الواحدة . . هي التي قتلت ربيعي في القاهرة وأراقت دمه ... وحملتني على الهروب إلى حضن هذه الضيعة الهادئة النائية وسألت نفسي: لماذا أهرب منها .. ثم أستجيب لندائها في التليفون؟! وكان الجواب السريع : أرجوك يا عم إلياس .. قل لها أنني في مكان مجهول ... وتردد عم إلياس وهو ينظر في إشفاق .. ثم ذهب وأبلغ الرسالة وانصرف إلى مخدعه وتعبت الراهبة الشابة التي رفعت عينيها نحوي لأول مرة

لتتأمل هذا الهارب من نداء القاهرة .. ولمحت في عينيها أنها تريد أن تحدثني .. ففتحت لها باب الحديث :

- يخيل لي أن عينيك ترثيان لي؟!

فقالت في صوت رقيق : الواقع أنني لا أريد أن أحرجك، ولكني خادمة لله، فهل أستطيع أن أساعدك في شئ؟

ولم أجب .. ولعلها أدركت ذوبان الكلمات على شفتي .. فقالت : لقد سمعت اسمك الآن عندما ناداك عم إلياس ألست أنت الذي تكتب في صحف القاهرة؟

قلت :- أجل أيتها الأخت

قالت:- وهل لي الحق أن أسألك .... لماذا تهرب من نداء القاهرة؟

وتلعثمت الكلمات وأنا أقول لها:- إنني ... هارب من ... الحب!

وطافت كلمات "هارب من الحب" في أعماقها لحظات .. ثم نظرت بكل عينيها ... وقالت لي بصوت يملؤه الشجى:

- أجل ... بعض الناس يهرب من الحب بالانتحار .. وهؤلاء هم ضعفاء الإيمان ... وبعضهم يهرب منه بالسفر البعيد ... وهؤلاء أوساط الناس في إيمانهم.

قلت لها:- وماذا يفعل المؤمنون أيتها الأخت؟

- يهربون إلى الله

وفجأة ... لملمت الراهبة الشابة خيوطها، ونهضت من مكانها قائلة:

- تصبح على خير.

واتجهت إلى غرفتها وهي تمسح عن خديها دموعا لم تشأ أن يراها أحد غير الله.

*****

- لم يعد - بعد حكاية التليفون وحديث الراهبة - مجال للنوم .. فلابد من صحوة إلى الصباح.

وناديت عم إلياس ...

وجاء الرجل يفرك في عينيه، فقلت له :

- لا تؤاخذني يا عم إلياس... إني سأسهر هنا في الشرفة حتى الفجر .. وأريد فنجالًا من الشاي تستطيع أن تنام بعده رائق البال.

وأجاب بسماحته الحلوة:

- تكرم .... عيني.

وعاد بعد هنيهات وفي يده الشاي وبعض كعكات .. وسألني إن كنت أريد أن أبقى وحدي، أم أوثر أن يجلس معي حتى يعاوده النوم مرة أخرى.

وآثرت الثانية ..

وبدأنا نثرثر ... ورويت له الحديث الذي دار بيني وبين الأخت ذات الوجه التقي النقي، فاقترب مني، وراح يروي لي ذكريات شبابه في القاهرة، وكيف فجع في أكبر حب في حياته، فآلى على نفسه ألا يربط حياته بامرأة واحدة ما عاش ... وقد عاش بعد ذلك أفاقًا في الحب، يطلبه في صالات اللهو وأندية الليل، حتى أدركته الشيخوخة فانسحب من الميدان.

وكان ميدانه الأخير في جولات الشباب، فاتنة عاشت زمانًا طويلًا تكتب تاريخ الهوي في ليالي القاهرة.

... صاحبتها فنانة زاخرة بالحيوية، اسمها الحقيقي مدام إيلين، وإن عرفها الناس باسم مدام إيلين كانت في شبابها من أجمل نساء الأرض ... ولكن السنين دبت إلى جمالها، وزحفت على وجهها ترسم الخيوط والتجاعيد، فأصبحت تشتري الحب بعد أن كانت تبيعه.

وذات ليلة ... وقف على مسرحها مطرب شاب، اكتشفته في شارع محمد على، وأحست أنه موهوب وأنه لم يأخذ فرصته في الحياة، فقدمته للناس.

ومنذ الليلة الأولى ... بل منذ الأغنية الأولى، اندلعت الأكف تصفق له تصفيقًا

ملتهبًا، وتحيي هذه الموهبة الكبيرة المغمورة.

ونزلت الستارة، وانسحب المطرب الشاب إلى ما وراء الكواليس يبكي من الفرحة.

إنها ليلة القدر في حياته ...

وتسللت إليه مدام إيلين وهو في ركن من الكواليس، وقادته إلى غرفتها، وسألته:- هل أنت سعيد؟

قال:- ومدين لك بكل هذه السعادة.

قالت :- هل صفق لك أحد قبل الليلة؟

قال:- أبدًا.

- وهل أنا أضفت إلى موهبتك التي عاشت سنوات مغمورة، أي شيء!

وسكت الشاب، ولم يدر بم يجيب فاستطردت مدام إيلين تقول له:

- نعم ... لقد أضفت إلى موهبتك شيئًا هو الإطار التي تتألق فيه هذه الموهبة ... وأنا هذا الإطار.

وأمسكت بيده تضغط عليها في لهفة الأنثى التي جاوزت الخمسين، ثم قالت له هامسة:

- هل تحب أن تبقى في هذا الإطار ... إلى الأبد؟

ولم يفهم أيضًا ... فمضت تقول له:

- هل تتزوجني

وارتسمت أمام المطرب الشاب حقتان في الهواء، في إحداهما صورته القديمة، وهو مطرب مغمور في شارع محمد علي، يعيش بغير أمل، وفي الثانية، صورته الجديدة، داخل إطار من الذهب.

ولم يكن الشاب مشغولًا بحب ولا بعاطفة ... كان كل حبه موهوبًا للفن، كانت كل عاطفته متجهة إلى بناء المستقبل والفن والمستقبل .... يحددهما هذا الإطار.

وقال بلا تردد:- شرف لا أحلم به

وارتمت عليه مدام إيلين تعانقه بكل عنف الأنثى الضارية.

*****

وأصبحت هناك أسرة ...

أسرة قوامها ثلاثة : مدام إيلين، وزوجها المطرب الشاب، وابنتها ... ابنتها من أول زيجة في حياتها، قبل أن تدلف إلى عالم الفن : مادلين.

كانت مادلين زهرة حلوة ... في العشرين...

عاشت مادلين طفولتها وصباها تلميذة بالقسم الداخلي في مدرسة "الميردي ديو" .. أرقى مدارس البنات بالقاهرة، فلم تكن تعرف شيئًا من قصة أمها إلا ما يدور حولها همسًا يمزق كيانها أحيانًا، فتؤثر أن تكتمه في أعماقها على مضض.

إلى أن تزوجت مدام إيلين الموسيقى الشاب .. وأصبح لها بيت زوجية لأول مرة منذ ربع قرن ... وهنا خرجت بابنتها من القسم الداخلي بالمدرسة، وجاءت بها إلى البيت.

ومرت الأيام ... ومدام إيلين موزعة القلب بين عملها وزوجها .. لقد عرفت معنى الاستقرار لأول مرة في حياتها.

أما زوجها الشاب .... فلم يكن البيت والزوجة له إلا جسرًا للمستقبل وحلمًا للآمال.

أما قلبه ... فإنه ظل خاويًا على عرشه كما كان ... إلى أن تسللت إليه المأساة، عندما التقت عيناه بعيني مادلين – بنت زوجته – ذات ليلة على نغمة حلوة هادئة تتحدث عن الشباب والربيع والعاطفة، ولم تكن مدام إيلين في هذه الساعة بالبيت.

وبدأت الهمسات بينه وبين مادلين .. وتحدثا عن الشباب والربيع والعاطفة ... فانفجرت مادلين تصارحه بأن القدر يظلمها ويظلمه، حينما يكتبه لأمها .. والصواب أن يكون لها هي ... هي وحدها ... إلى الأبد.

والتقيا – دون وعي – في قبلة طويلة عنيفة لا يباركها أحد.

وفجأة ... طرق الباب

وعادت مدام إيلين إلى عشها .... ولاذت مدلين بغرفتها ... تبكي.

وفي الصباح ... دخلت مدام إيلين لتلقى تحية الصباح على ابنتها، فلم تجدها، في مخدعها ووجدت مكانها خطابا باكيا ... تودعها فيه ... لأنها هربت إلى رحاب الله!

*****

وانتهى عم إلياس من قص القصة، وقبل أن ينسحب إلى غرفته، قال لي هامسًا ... مشيرًا إلى غرفة الأخت ذات الوجه التقي النقي:

- هذه هي مأساة الأخت ...

مادلين

وذهلت ... وقلت له:- أتعنى ... أنها هي !

- أنها هي

ودخلت إلى مخدعي قبيل الفجر، وأنا أتعجل إشراق الصباح، لعل فرصة تسنح لي أتحدث فيها إلى الأخت مادلين.

وعندما أفقت من نومي في التاسعة، وخرجت إلى الشرفة لأتناول الإفطار لم أجد الأخت مادلين.

وسألت عنها عم إلياس، فقال لي:

لقد غادرت الفندق منذ ساعة.. عادت إلى الدير.

الأميـرة الضـائعـة

السيدة التي ترونها الآن مرارًا في شوارع القاهرة، تمشى كأنها أميرة شركسية ذهبت عنها الإمارة كما ذهب الشباب ... ولم يبق منها إلا وجه حافل بالغضون، وقدمان واهيتان لا تقويان على السير الطويل، وعينان خضراوان أغلقت السنين ثلاثة أرباعهما وسرقت منهما أكثر النور وأكثر السحر ...

هذه السيدة ..كانت يوما ما أجمل امرأة وقفت على مسارح القاهرة، بقامتها الفارعة، وشعرها الذهبي الذي يترامى إلى ركبتيها فتترامى تحته مئات القلوب.

وأية قلوب ؟

قلوب نبلاء الأدب والفن ... ففي دنيا الأدب والفن نبلاء ..كما فيها صعاليك.

نبلاء .. أحبوا الأدب للأدب، وأوغلوا فيه، وقرءوه في كل كتاب بكل لغة، وجملوا وجهه، وأضافوا إليه، دون أن يتكسبوا منه.

ونبلاء ... أحبوا الفن للفن، ودرسوا مذاهبه، ونضروا حدائقه، ولكنه بقى في أعماقهم هواية أسمى من أن تحترف وتكون مصدرًا لرغيف العيش.

أعرف منهم ذلك الكاتب المسرحي الشاب، الذي حقن المسرح في عصره بدم جديد، وبدلًا من أن يكسب منه، أنفق عليه أكثر من نصف ما ورث من ثروة أبيه الثري الكبير.

وأعرف منهم ذلك الشاعر المرهف، الذي ترك وراءه مجموعات من أجمل ما نظم أبناء مصر من شعر.

وأعرف منهم ذلك المثال العظيم، الذي كان من أول دعاة العودة إلى نظرية العمود الفرعوني في الفن الحديث، وترك من بنات هذا الفن نماذج ساحرة.

وأعرف منهم ذلك الفتى اللعوب، الذي وهبه الله من الجمال واللطف وخفة الظل

ما لو وزع على عشرات من الرجال لحولهم إلى فتن للغانيات، ووهبه إلى جانب ذلك ثروة طائلة أنفقها كلها ... إلى آخر درهم. تحت قدميها .. فلما أفلس ... انسحب من المعركة، واعتكف في ركن هادئ من الحياة ..... يقرأ ويكتب.

وأعرف منهم ذلك الدبلوماسي الشاعر ... الذي أحبها حب عبادة، فلما استيأس منها ودعها بقصيدة مطلعها:

أنـــــت قـــــبر والأمـــــاني جثـــــة
جـــــذبت للمـــــوت أحـــــلام شـــــبابي

كنت مراهقًا في الثامنة عشرة عندما رأيتها لأول مرة على المسرح.

وكانت في أجمل أنوثتها ... في نحو الثلاثين.

وكنت قد سمعت أن جمالها هو الوحش الذي يأكل قلوب الشعراء والأدباء والفنانين، فذهبت لا لأرى المسرح ولا المسرحية ... بل لأحاول أن اهتدى إلى موطن هذا الوحش .....

أهو في جسدها أم في روحها؟

وخرجت من المسرح في تلك الليلة، وبلاهة المراهق ... لم أنم حتى الصباح.

قضيت نصف ليلتي أتسلاها في خيالي، وأحاول أن أبحث عن موطن ذلك الوحش ... على غير طائل.

وقضيت نصفها الثاني، حتى مطلع الصباح، أنظم فيها قصيدة لا أذكر منها إلا هذين البيتين:

أحبـــــك للجـــــسد العبقـــــري
ولـــــيس وراء الهـــــوى مـــــأرب
كمـــــن يـــــشهد الخمـــــر في كأســـــها
فيثمـــــل منهـــــا ولا يـــــشرب

وأرسلت القصيدة إليها ..... بالبريد.

****

وفي الصباح، ذهبت إلى الجامعة فلم أستقبل أية كلمة من أية محاضرة.

وخرجت في الظهيرة ... لا إلى البيت، بل جعلت أسير على غير هدى إلى أن وجدت نفسي في شارع عماد الدين، وفي قهوة الفن، التي كانت ملتقى أهل الأدب والفن في ذلك العهد.

وبقيت في ذهول حتى الغروب ...

حينما أقبل على صديقي الدكتور (ن) شاعر الحب الملتهب والعاطفة المحلقة.

وسألني: لم بكرت الليلة؟

قلت له : أنا هنا منذ الظهيرة ...

وتأمل وجهي المتعب، وعيني المرهقتين من قلة النوم، وقال لي:

- ما بك؟ ... حالة حب؟

فقصصت عليه القصة ...

فضحك طويلًا ... ثم قال لي :- لا عليك ... إنني أعرفها جيدًا.

قلت له :- ليس المهم أن تعرفها أنت ... بل أن أعرفها أنا.

قال:- هذا ما أقصد ... سأقدمك إليها يوم الخميس القادم الخميس ...

- ونحن لا نزال يوم الأحد!

هل أستطيع الانتظار أربعة أيام أخرى؟

وجاء يوم الخميس .. وقابلت صديقي الدكتور ن .....

وآخذني من يدي إلى بيتها ..... في الزمالك.

ودخلت البيت وأنا أرتجف ....

*****

كنت قد أعددت قصيدتين أخريين، لأتلوهما عليها، لعلها تعطف على، وتقربني منها.

ولكنني عندما دخلت من الباب، نسيت كل كلمة فصحى أو دارجة في قاموس اللغة.

وجلسنا في الصالون ...

وأقبلت هي تتهادى كأميرة شركسية ذات دل وإشراق وملك كبير.

وقدمنى إليها صديقي الشاعر الدكتور ن ... على أنني شاعر ناشئ، لا أزال طالبًا بالجامعة، ولكن لي مستقبلًا في عالم الأدب.

وما كادت تسمع اسمى، حتى شهقت شهقة موسيقية، وجذبتني من يدي لتقبلني في خدي قبلة أم لابنها وهي تقول:

- يا حبيبي يا ابنى ... كنت فاكراك راجل كبير!

وانهارت الأرض تحتي من وقع كلمة "يا بني" .. ولم تخفف القبلة من وقع هذه الكلمة التي لا أحب أن تدخل في قاموس الحب الذي أرجوه عندها.

وذهبت .... وجاءت بكأسين من لويسكي ... اتضح أنها أعدت واحدة منها لنفسها والأخرى لصديقي الدكتور ن...

اتضح هذا عندما وضعت الصينية على المائدة، ثم التفتت لي وسألتني:

- وأنت ... أجيب لك إيه؟

ولم أحر جوابًا ... كأنني أكلت كمية ضخمة من سد الحنك.

وعادت تسألني:- أجيب لك عصير ليمون؟

وهززت رأسي ..

وجاءت لي بعصير الليمون، الذي جعلت أتذوقه وأنا أترحم على المسكين سقراط، الذي شرب كأس السم لأنه قال الحق كما أحس به.

وأنا مثله ... قلت الحق الذي أحس به ... فلم أصب غير علقم الكأس المرة ..

- يا ابني .....
- وكأس عصير الليمون ..

ومكثنا زهاء نصف ساعة صاحبي يضاحكها وهي تضاحكه، وأنا مستغرق في ذهول.. إلى أن حدثت المفاجأة.

دق جرس الباب ....

ونظرت هي إلى ساعتها

وقامت تنظر من عين في الباب زجاجية تكشف من في الخارج دون أن يحس.

وعادت مضطربة ترفع الكأسين وعصير الليمون، وتسألنا أن نسرع بالخروج، والنزول من سلم الخدم، لأن صديقها فلان قد حضر على غير موعد، وهو كل شيء في حياتها الآن ... إنه يهبها كل شيء .. وهو غيور إلى حد الحماقة .... لا يتصور أبدًا أنها تستقبل أي رجل في البيت الذي أعده لها.

وينفق عليه بسخاء .. مهما كانت علاقة هذا الضيف بريئة.

ونزلنا مهرولين من سلم الخدم وكان منظرنا مثيرًا للعجب، وللشبهة أيضًا، في عيون خدم الأدوار السفلى الذين مررنا بهم في طريقنا في الشارع.

وعندما بلغنا الشارع، كنت قد أفقت من ذهولي.

ولكن الذهول لم يذهب ...

كل ما فعله، هو أنه تحول عني إلى صاحبي الدكتور ن ... الذي راح يتمتم باسم صديقها الذي حدثتنا عنه .. الذي هبط علينا على غير موعد ..

يتمتم باسمه، ويخبط كفا بكف ... ويقول : "والله حاجة عجيبة ... حاجة ما يتصورهاش العقل "

وقلت له :- أي عجب في هذا ... ولماذا لا يتصوره العقل ؟ .... أليست امرأة ... وفنانة ... وفي حاجة إلى صديق ؟

وهل هناك امرأة تعيش في دنيا الفن بغير صديق؟

قال :- إلا فلان هذا !

وفلان هذا .... محام كبير ... كان أحد ثلاثة هم أكبر المحامين في مصر في ذلك الوقت.

وهو بعد ذلك أديب ذواقة، وله كتابان أو ثلاثة، يتميز بأسلوب قصصي لامع ساخر.

****

ومضى صاحبي الدكتور، ... يروى لي قصة فلان، ويشير إلى موضع العجب فيها.

قال لي:

"هذا الرجل ... عاش كل شبابه صلب الفؤاد، تركع عشرات النساء تحت قدميه، إعجابًا بشخصيته وفتنة بخفة ظله وتأثرًا ببذخه .... فهو يكسب آلاف الجنيهات من المحاماة، وينفقها إلى آخر مليم على من حوله.

تركع عشرات النساء تحت قدميه دون أن يركع هو لإحداهن مرة واحدة.

إلى أن جاءته قضية مثيرة ... قضية مليونير ... أحب مطربة شابة حلوة ... ونشأت بينهما علاقة وثيقة أثمرت طفلًا.

والمليونير ينكر الطفل، والمغنية الشابة تتمسك بأبوته له ... وقد انتهى أمرهما إلى القضاء.

وذهبت المغنية الشابة إلى صاحبنا .... المحامي الكبير .. ليتولى أمر الدعوى.

ومنذ اللحظة الأولى ... انهار قلبه بين يديها ... لأول مرة في حياته.

وسألته عن الأتعاب ... فكان جوابه :

- نتفق عليها في المساء.

ومرت به في المساء ... فإذا هو يقدم إليها علبة صغيرة ... فيها خاتم سوليتير لا يقل ثمنه عن ألف جنيه ... ويهمس لها :

- هذه هي الأتعاب

واستطاع المحامي الكبير أن يثير الصحف والحكومة والبرلمان ... والدنيا كلها ... على المليونير الذي غرر بهذه المغنية الصغيرة البريئة.

وأراد المليونير أن يشترى المحامي الكبير بأي ثمن، ليرد عنه هذه الحملة الطاغية، ولكن المحامي الكبير رفض كل إغراء ... في إصرار عنيف ... لأن قصة حب طاغية كانت قد بدأت بينه وبين المغنية الحلوة.

قصة حب أصبحت حديث المجتمع.

وتوالت انتصاراته في القضية، فصدر الحكم الابتدائي لصالحها .... مع نفقة كبيرة ...

ثم أيده حكم محكمة الاستئناف ... كل هذا ... وقصة الحب تزداد التهابا بين المحامي الكبير وموكلته.

إلى أن صدر حكم محكمة النقض ..... بالتأييد أيضًا ... فلم يعد أمام المليونير إلا أن يستسلم ويمتثل واستسلم وامتثل ....

وذهب المحامي الكبير في تلك الليلة إلى بيت المغنية الحلوة ليحتفلا بالنصر النهائي ... فوجد عندها رجلًا آخر ... ووجدهما في حالة حب!

وجن جنونه ..

وسألها : ما الحكاية؟

قالت له بكل بساطة ... وهي ثملة:- أحبه !

قال في ذهول:- وأنا ؟

قالت :- أنت ... انتهت مهمتك بحكم محكمة النقض.

ومال رأس المحامي الكبير لحظة إلى الإمام، كما يميل رأت المشنوق فوق الحبل ... واستدار .... وخرج من عندها يمشى في الطريق المظلم، ودمعتان كبيرتان تتساقطان من عينيه.

خرج من عندها كافرا بالمرأة ...

مقسما ألا يربط حياته بحياة امرأة في يوم من الأيام ... وإلى الأبد.

ولكن ... ها هي ذي المفاجأة هذا هو موضع العجب الذي حمل صديقي الدكتور، ... على أن يخبط كفا بكف، وهو يسمع من الممثلة الفاتنة ذات العينين الخضراوين والشعر الذهبي، أن فلانًا ... المحامي الكبير... قد أصبح رجلها ... وكل شيء في حياتها ... قبل أن يمضى على حكم محكمة النقض شهر واحد !

قلت له :

- أجل ... إن من يعرف الحب مرة واحدة ... لا يستطيع أن يعيش بغير حب ..... ولا يملك أن يكفر به ... مهما حدث!

امرأة تحت الأضواء

قالوا عنه كل شيء.. إلا شيئا واحدا قالوا عنه إنه متصوف.. ينتهي من عمله كمخرج لامع، فلا يراه أحد.. لأنه يفرغ إلى صومعته ناسكا متعبدا، وقالوا عنه إنه يرتعد فرقًا من زوجته، لأنها قوية الشخصية عاتية السيطرة، ولهذا يرتجف من كل امرأة تلوح في حياته، وقالوا عنه إن له خليلة لا يعرفها أحد، لأنها بعيدة عن دنيا الفن،تعيش في معزل عن الأضواء، وتداريه معها تحت حجب الظلام. قالوا أشياء كثيرة، ولم يحاول صديقي المخرج اللامع، وهو يسمع كل هذه الروايات أن ينفي شيئا أو يثبت شيئا، مكتفيا بتلك الابتسامة الهادئة المطبوعة على وجهه دائما. قالوا عنه كل شيء.. إلا شيئا واحدا: أن تكون له في يوم من الأيام صلة بواحدة ممن يعشن في هذه الدنيا الصاخبة... دنيا الفن.

وصاحبي هذا، فارع القامة، أنيق المظهر، رقيق الحديث، مرهف الحس، طيب الأعراق... صورة جذابة، خليقة بأن تستهوي كل أنثي تعيش في دنيا الفن وعشرات من الوجوه القديمة والجديدة حاولت أن تصل إلى قلبه في إلحاح، ولكنه كان يردها دائما في رفق.. فإن لم ينفع الرفق، اضطر أن يمد ذراعيه ليقيم حدا فاصلا بينه وبين محاولات الغزو.

القادمة الجديدة.. شابة حلوة.. ملونة العينين.. تعيش منذ عام وبعض العام في دنيا الفن.

جسدها أجمل من موهبتها.. وأبرز ما فيها أن لها صوتًا دافئا يحسن الهمس ويجيد النجوي، وهي صاحبة دور.. لعله الدور الثاني أو الثالث في الفيلم الذي يخرجه صاحبي ولكن أمالها كانت أكبر من ذلك وكانت طريقة صاحبي في الإخراج أن يجالس كل ممثل وكل ممثلة من المشتركين في فيلمه، مهما صغرت أدوارهم، ليشرح لهم القصة.. ثم يبين لهم الأبعاد النفسية للدور المطلوب من كل منهم.

كان يؤمن بأن أصغر دور فى الرواية، يستطيع أن يكتب الفشل للرواية كلها إذا لم

يحسن صاحبه القيام به.. وكان تشبيهه في هذا المجال، أن أعظم أكلة في الوجود تستطيع أن تفسدها ذبابة صغيرة تقف فوقها لحظة واحدة، وعندما جاء دور القادمة الجديدة في الجلوس إلى صاحبي المخرج اللامع، انتحيا ركنا هادئا من الأستوديو، وراح يقص عليها القصة ويشرح لها دورها فيها.. وهو دور المرأة التي يخدعها وهم حب كبير.. يرسم لها صورة الرجل الذي أمامها في ثوب المثالية..وتتزوجه ثم سرعان ما يتضح لها أنه ليس إلا رجلا كبقية الرجال وعند هذا الحد من الحادثة، تخرج هي من القصة، وينتهي دورها، وتستمر القصة بعد ذلك بين هذا الرجل نفسه وبطلة الفيلم.. وهي امرأة من نوع آخر.. امرأة تعرف كيف تصنع منه رجلا مثاليا.. بحق وحقيق، ويرفع صديقي عينيه ليتأمل تأثير الدور عليها.. فيجد سيلا من الدموع ينساب من عينيها ويرتعد رعدة الإشفاق.. ويسألها:

- أنت تبكين؟.. لماذا تبكين؟ فتجيبه بصوت متقطع

- لا.. شيء.. وتزداد انخراطا في البكاء.. وهي تنهنه قائلة:

- أرجوك يا أستاذ.. أرجوك.. لا تسألني.. دعني لشقائي.. إنني أشقي امرأة في الأرض.. إنني لا أريد هذا الدور.. أكرهه.. أكرهه... وبهت صاحبي.. إن عشرات من الوجوه الناشئة يتمنين دورا في هذا الحجم.. وهذه تقول إنها لا تريده.. لأنها تكرهه، وتركها تهدأ قليلًا.. وهدأت.. وابتسمت ابتسامة خفيفة.. وقالت له:

- أنا آسفة.. لقد قبلت الدور.. لا يسعني إلا أن أمضي فيه ولم تقنعه هذه الكلمات.. فقال لها:

- ولكن أعماقك غير مقتنعة! .. فاقتربت منه.. وأخرجت كل ما في طاقتها الكامنة من مقدرة على الهمس والنجوي.. وهمست له :

- أنت يا أستاذ.. كبير.. أنت جبل.. أنت قمة عالية.. وأنا لا أعدو أن أكون إلى جانبك أكثر من رملة صغيرة عند السفح.

في هذه اللحظة.. لم يشعر صاحبي بأنه جبل.. ولا أنه قمة... أحس أنها هي القمة.. وأنه هو الرملة الصغيرة الراقدة عند السفح واهتزت كل أعماقه.. واقترب منها يسألها:

افتحي قلبك.. هل لك مأساة؟

فتراجعت قليلا، قائلة:

- وهل أروي ماسأتي لإنسان يعيش بغير قلب؟

وذهل.. وقال:- أنا.. بلا قلب؟

قالت.. قوية:

- طبعا.. الجميع يعرفون أنك إنسان بلا قلب.. إنسان يعيش بلا حب.. ولكني أعذرك.. لعلك سعيد في زواجك.. لعلك وجدت المرأة التي تستطيع أن تسعدك.. فدعنا يا أستاذ.. دعنا نحن الأشقياء نتحطم في شقائنا

- وهل أنت شقية؟

- إنني أشقي إنسانة على الأرض... إنسانة كل ذرة من روحها وجسدها حب.. ولكنها تعيش بغير حب.. لأنها لم تجد من يهمس لها: أحبك

انتهت ساعات العمل في الأستوديو وخرج الجميع ولم يذهب صاحبنا إلى بيته، بل جاء إلى بيتي.. يزورني وكان على غير عادته.. واجما ساهما.. شرب فنجان القهوة.. ثم سبح بعينيه في فضاء بعيد أحسست أنه يريد أن يقول شيئًا، فقلت له :

- تكلم يا رجل.. قل كل شيء، وأفاق.. وراح يروي لي القصة من بدايتها وقبل أن يقترب من نهايتها بقليل، قلت له:

- إنني أعرف النهاية.. في النهاية.. قالت لك إنها أشقي إنسانة على الأرض.. وأنها إنسانة كل ذرة من روحها وجسدها حب..ولكنها تعيش بغير حب.. لأنها لم تجد من يهمس لها: أحبك!

وذهل صاحبي .. وصرخ:

- كيف عرفت؟

قلت له ضاحكا:

- عشرات من المنتجين والمخرجين والمؤلفين.. ومنهم أنا.. سمعوا منها هذه الكلمات..

بالحرف الواحد.. وصدقوها.. وأقدموا، ثم اتضح لهم في النهاية أن هذه الكلمات التي تضعف أمامها قلوب الرجال، ليست إلا جسرًا للوصول إلى دور أكبر.. إنها تطمع في الدور الأول!

وانزاح عن صدر صاحبي كابوس ثقيل... لقد عاش في دنيا الفن عشرين سنة، لم يعلق قلبه خلالها بواحدة ممن يعشن تحت الأضواء يومًا واحدا وها هو ذا اليوم.. أوشك أن يسقط.. أوشك أن يكون كالآخرين وقلت له وأنا أودعه:

-عيب هذه الفتاة أنها لا تجدد وأنها تكرر دائما نفس الكلمات!

obeikandl.com

ذات المنديل الأحمر

هناك أناس مجبولون بطبيعتهم هلي الصعلكة.. تسنح لهم الفرص، وتتاح لهم الظروف، وتمهد لهم الجسور إلى حياة ناعمة راضية.. ولكنهم يهربون.. يهربون دائما إلى عالم الصعلكة!

أعرف شابا كان معنا في الجامعة، وتخرج بتفوق، ولكنه أبي أن يشتغل بأية وظيفة، وآثر أن يقضي نهاره متنقلا من مقهي إلى مقهي، ويقضي ليله متجولا في شوارع القاهرة .. مكتفيا بأن يقترض من هذا ربالًا ومن ذاك نصف ريال.. إلى أن ينقلب إلى بيت ذويه مخمورا عند الفجر!

وأعرف شاعرا وأديبا موهوبا- رحمه الله- جاءني منذ سنوات في دار الهلال يسألني جنيها واحدا.. لأنه جائع... قلت له:

- سأعطيك الجنيه إن شئت.. ولكن ألا تري أنه من الأكرم لك أن تعمل وتكسب ما هو أكثر بكثير من هذا الجنيه؟

قال لي: وأين لي أن أعمل؟

قلت: هنا.. في دار الهلال

- بكم؟

- بثلاثين جنيها في الشهر وتهلل وجهه.. أو تصنع التهلل وقدمته إلى أحد المكاتب، ووضعت أمامه بضعة أعمال لينجزها، وجاءت الظهيرة، وجاء مستأذنا في الانصراف لأمر عاجل، على أن ينجز ماعنده من الأوراق ويأتي بها في الصباح الباكر وطلب الجنيه.. فأعطيته إياه.. ولم يفته أن يسألني أن ألخصم هذا الجنيه من مرتبه في آخر الشهر، وفي الصباح الباكر.. وجدت الأوراق التى عنده على مكتبي غير منجزة ومعها رسالة صغيرة يقول فيها إنه لن يعود.. لأنه يفضل الجنيه الذي يتسوله على الثلاثين

جنيها التي يعمل بها.. وعاد إلى عالم الصعلكة، إلى أن لقي وجه ربه، رحمه الله!

وهناك كذلك نساء يفضلن... الصعلكة على كل شيء.. حتي على المال والشهرة والمجد!

قابلت واحدة منهن هذا الأسبوع وأنا في طريقي إلى نادي السيارات بالإسكندرية. كنت قد نسيت وجهها عندما استوقفتني في الطريق وقالت لي:

- ألا تذكرني؟ أنا فلانه ومضت تذكرني بنفسها، فتذكرتها تماما.

قالت: أمعك سيجارة؟

قلت لها: بل علبة سجائر... وتناولت العلبة شاكرة، وفتحت حقيبة يدها لتضعها فيها.. وألقيت نظرة عاجلة على محتويات حقيبتها فإذا بها- كالعادة- بضعة قروش، وقلم روج من النوع الرخيص ومشط فيه أكثر من سنة مكسورة، ومنديل أحمر من النوع الذي يسلبك الثقة في صاحبته...إنك تستطيع أن تثق بالسيدة التي تحمل في حقيبة يدها منديلا أبيض أو أصفر، أو أي لون آخر غير اللون الأحمر.. أما المرأة التي تختار المنديل الأحمر، فإنما تختاره لممارسة المهنة.. مرة واثنتين وثلاثا في اليوم!

.....

في سنة ١٩٤٥.. والحرب العالمية الثانية توشك أن تضع أوزارها.. كنت مع صاحبي المنتج السينمائي (ف...) نتناول الغداء في مطعم (اليونيون) وكان منظر المائدة المجاورة لنا يستحق التعليق. كان على المائدة مجموعة من زجاجات البيرة الفارغة. وحول المائدة، أفندي ذو طربوش طويل، وكرافتة لا تتناسق مع لون بدلته في قليل ولا في كثير. كان واضحا أنه قادم من الأرياف.. وإلى جانبه.. شابة جميلة جدا، ولكن جمالها غير مهذب، تنقصه يد (الماكيير) الماهر و(الكوافير) الأنيق والخياطة البارعة كان فيها مادة خام لشابة فاتنة، لا ينقصها إلا الصقل.

وشربا.. شربا كثيرا ومال رأس الأفندي القادم من الأرياف، وراح يغط في النوم أما هي، فقد لعبت البيرة برأسها، فأخذت تدندن بأغنية معروفة بصوت جميل.. جميل إلى حد خليق أن يجذب السمع ... وأرهفنا - صاحبي وأنا- آذاننا إليها، فابتسمت وهمست لنا: أيعجبكما صوتي؟ ولم أشأ أن أتدخل.. وقال صاحبي المنتج: إنه بديع.. وأخرج من

جيبه بطاقة تحمل اسمه وعمله وعنوانه.. وقدمها إليها في غفلة من الأفندى النائم القادم من الأرياف وانصرفنا، وأنا أسأله:

- هل أعجبتك إلى هذا الحد!

- أتعرف؟ مثل هذه الفتاة تصلح لأن تكون بطلة فيلم.. وقد ترضيها مائة من الجنيهات.. تغنينا عن آلاف الجنيهات التي ندفعها لرجاء عبده وشادية وليلي مراد وغيرهن!

*****

ومر يوم واثنان.. وأسبوع واثنان ولا خبر عنها ونسيناها بالمرة.. وبعد أن نسيناها.. جاءت إلى مكتب صاحبي المنتج على غير انتظار والتقت هناك بالمخرج (ع..) ورآها، وتحدث إليها، وسمعها تغني... وهمس لصاحبي المنتج:

- تعاقد معها على الفور.. وتم التعاقد.. وانطوت حقيبتها لأول مرة في حياتها على خمسين جنيها.. نصف قيمة العقد!

وبدأت أيام التصوير.. وكانت المشكلة اليومية الكبري في حياة صديقي المنتج (ف..) هي البحث عن نجمته الجديدة. كان على (الريجسير) أن يطلق ثلاثة أو أربعة من صبيانه كل يوم للبحث عنها في أي مقهي أو أي شارع أو أية حانة وكثيرا ما كانوا لا يظفرو بها.. وقليلًا ما كانوا يظفرون بها سكرانة مع خواجة متواضع.. أو تلميذ ينفق عليها ثمن كتبه.. أو أفندي قادم من الأرياف. وبالطول أو بالعرض.. انتهي تصوير الفيلم انتهي في أربعة أشهر.. بدلا من شهر واحد وقال لي صاحبي المنتج وهو يضحك ضحكة مرة:

- لقد أردنا أن نوفر من أجر البطلة، فدفعنا أضعاف الثمن للأستوديو!

وظهر الفيلم.. ونجح نجاحا مرموقا... وتحدث الجميع عن المطربة السينمائية الجديدة الفاتنة.... وحتي الآن بعد مرور عشرين سنة على ظهور ذلك الفيلم.. لا تزال الإذاعة تقدم أغانيه، وتصادف هوي في نفوس المستمعين، دون أن يكلف أحد منهم نفسه عناء تذكر اسم المطربة صاحبة هذه الأغنيات. أما هي.. فقد هربت من الأضواء.. ولم تحفل بالمال ولا بالمجد ولا بالشهرة؛ عادت إلى عالم الصعلكة.. ونامت خلف أسوار

النسيان وذات يوم- بعد ظهور الفيلم ببضعة أشهر- قابلتها في الطريق، وقلت لها:

- لماذا تصنعين بنفسك هذا يا طفلتي؟ وكانت ثملة.. فبكت بدموع محرقة.. وقالت لي:

- لقد أحببت وأنا في السادسة عشرة من عمري حبا لم يحب أحد مثله من قبل.. حبا لم تعرف مثله الملائكة ولا الشياطين.. ولكن الرجل الذي أحببته طعنني بسكين اجتث قلبي وعقلي معا.. فأصبحت كما تراني.. أعيش بلا قلب ولا عقل!

هذه هي المرأة التي رأيتها هذا الأسبوع تتسول سيجارة على شارع الكورنيش!

obeikandl.com

قالت لي الملهمة

منذ ثلاثة أسابيع أو أربعة، حملت صفحة الوفيات بالصحف اليومية نبأ وفاة سيدة من أسرة كريمة، ووقف عند النبأ أصدقاء الأسرة يتذاكرون الفقيدة، ويعدون برقيات العزاء سائلين لها الرحمة ولآلها الصبر والسلوان أما الذين لا يعرفون الأسرة، فقد مروا على النبأ مر الكرام، دون أن يعرفوا أية ملهمة لقيت وجه ربها، بعد أن صنعت شاعرا من أرق شعراء العصر.. شاعرًا أضاف إلى تاريخ الأدب المعاصر أجمل الصفحات، ونفح المسامع العربية بأبدع الأغنيات. وعند منتصف الليلة التي كان العالم يودع فيها القرن التاسع عشر ويستقبل القرن العشرين، ولد هذا الشاعر في ضاحية جميلة من ضواحي القاهرة، لم تكن بها أكثر من سبعة قصور تسكنها سبع عائلات من أهل النعمة في ذلك العصر.. أحدها قصر أسرة هذا الشاعر.. وآخر منها قصر أسرة السيدة الكريمة التي رحلت عن الدنيا منذ أيام.

وشب الوليد عن الطوق، فتفتحت عيناه على ما حوله.. وكان أجمل ما حوله، صبية تصغره قليلا، قوية الإلهام، عذبة الأحلام، هي ابنة الأسرة المجاورة ونشأ الحب الطفولي بينهما... وشب معهما بريئا عفيفا فريدا في مثالية إلى أن أدركا سن الشباب... وفرقتهما الدنيا.. فإذا هو موظف مأمول في إحدى عواصم الوجه البحري، وإذا هي باقية في القاهرة.. وتمضي السنون عجافا على كليهما، فلا رسالة، ولا وسيلة اتصال، ولكن كلا منهما يعيش في قلب الآخر والشاعر العاشق يؤسس مستقبله على أمل يوم اللقاء الكبير بينهما.. اللقاء الذي يتمناه كل عاشقين. ولكن الصدمات تتوالى عليه حينما توافيه الأنباء بكثرة الأيدي الممتدة إليها، إلى أن تجيء الصدمة الكبري، حين يقرأ في الصحف نبأ عقد قرانها... وعلي من؟

علي صديق من أصدقائه، ومن أبناء مهنته أيضا.. وإن لم تكن في الآخر لمحة واحدة من لمحات الشعر ويقرأ شاعرنا النبأ، وتحمله أجنحة الذهول إلى القاهرة ليصنع شيئا..

أي شيء.. يسترد به حبه المفقود ولكنه حينما يصل إلى القاهرة، ويقف أمام قصرها الذي هجرته لتذهب إلى بيت الزوجية، يكتشف أنه لا يستطيع أن يصنع شيئا أكثر من قصيدة.. قصيدة من أجمل قصائد حياته.. ومن أجمل فرائد الشعر العربي المعاصر.. يصرع بها كل شاعر قديم وقف على الأطلال يبكي آثار أحبائه الراحلين يقول في نجوى القصر المهجور:

هـــذه الكعبـــة كنـــا طائفيهـــا
والمـــصلين صـــباحا ومـــساء
كـــم ســـجدنا وعبـــدنا الحـــسن فيهـــا
كيـــف بـــالله رجعنـــا غربـــاء
دار أحلامـــي وحبـــي لقيتنـــا
في جمـــود مـــثلما تلقـــي الجديـــد
أنكرتنـــا وهـــي كانـــت إن رأتنـــا
يـــضحك النـــور إلينـــا مـــن بعيـــد

إلى أن تنزل الستارة على الفصل الأخير من قصة الحب، فيقول:

وانتبهنـــا بعـــد مـــا زال الرحيـــق
وأفقنـــا، ليـــت أنـــا لا نفيـــق
يقظـــة طاحـــت بـــأحلام الكـــري
وتـــولي الليـــل، والليـــل صـــديق
وإذا النـــور نـــذير طـــالع
وإذا الفجـــر مطـــل كـــالحريق
وإذا الـــدنيا كـــما نعرفهـــا
وإذا الأحبـــاب كـــل في طريـــق

في حياة هذا الشاعر- وأحسب أنكم قد عرفتموه- عشرات من النساء، أكثرهن

ممن يعشن في عالم الأضواء.

أعرف منهن الراقصة (ك) التي نظم فيها قصيدته المشهورة (قلب راقصة) وقد كانت الراقصة (ك) من أجمل بنات عماد الدين وأقواهن روحانية وإيحاء.. وقد كانت الحب الكبير في حياة ممثل من أعظم ممثلينا الراحلين.

أنا أذكر ذلك اليوم الذي جلسنا فيه- ونحن في أول الشباب- هي، وصاحبي الشاعر، وأنا، في محل على الدلة بشارع عماد الدين وظلت دموعها تمتزج بكأسها طول الليل، وهي تروي لنا مأساة حياتها.. التي استوعبها الشاعر ونظمها في قصيدته (قلب راقصة) التي قال في نهايتها:

أنـــــا لا أري إثـــــمًا ولا عـــــارا
لكـــــن أري امـــــرأة وبأســـــاء

وأعرف منهن الممثلة (ز).. صاحبة أجمل وجه شهده المسرح المصري.. وقد نظم فيها شاعرنا قصيدة حلوة مطلعها:

جئـــت أشـــكو لـــك روحـــي وجواهـــا
وردت ظمـــأي... وعـــادت بـــصداها

وأعرف منهن الممثلة الكبيرة (أ) التي كتب فيها قصيدته العذبة التي يبدؤها بقوله:

لمـــن هـــذه الأعـــين الـــساحرة
ومـــا هـــذه الفتنـــة الآسرة
ومـــا ذلـــك المـــسرح القـــدسي
ومـــا هـــذه اللمعـــة الطـــاهرة؟

وأعرف منهن الممثلة (ز).. ولنسمها (ز- رقم ٢).. وهي لو رأيتها في أيام شبابها لعجبت من لهفة الرجال عليها، لأن مظهرها لم يكن ليغريك بشيء.. بيد أن نوع الرجال الذين عرفوها- وهم من خيرة رجال الفكر- يؤكد أن فيها شيئا لا يوجد في كثيرات من

النساء وهذه هي الفنانة التي ذكرت الصحف أنه كتب فيها أجمل قصائده: إنه كتب فيها قصيدة: الأطلال

وأعرف منهن ممثلة الإغراء (ز).. كذلك.. ولنسمها (ز- رقم ٣) التي تؤكد لكل من يلقاها في هذه الأيام أنها هي - ملهمة الأطلال

وأعرف منهن شابة حلوة، بعيدة عن معالم الأضواء، أسماها هو (زازا) في أكثر من قصيدة من قصائد ديوانه الأخير ولعلي أصعق كل هؤلاء السيدات حينما أصارحهن بأكبر حقيقة في حياة هذا الشاعر أنه لم يحب واحدة منهن أبدا.. وإن كانت قصصه معهن تبدو في صورة قصص الحب الحقيقية- كما سمعتها منه.. وقد كنت نجي حياته- أنه لم يحب في حياته إلا واحدة، هي حبيبة الطفولة والصبا والشباب.. حبيبة العمر.. التي ودعت الحياة منذ أيام أما جميع غرامياته التالية، فقد كانت كلها مجرد تحريك لعاطفته.. كالوقود الذي نلقيه فوق الفحم ليلتهب ويحرك الطاقة الكامنة في الجمرات السوداء!

وكل ما نظم في كل هؤلاء التاليات من شعر، وكل ما كتب لهن من رسائل، وكل ما بذل لهن من دموع.. إنما كانت في الحقيقة موجهة إلى حبه الأول والوسط والأخير:

ع.م... التي أهدي لها ديوانه الأول.. والتي ودعت الحياة منذ أيام!

وختام القصة أشد إيلاما على ضمير كل شاعر، وكل محب للشعر. لقد أتاح لي الزمن أن أعرف ع.م... وأن أكون صديقا يعرف كوامن فؤادها..

لقد قالت لي، وأنا أسألها عن قصة حبها لهذا الشاعر:

- هل أقول لك الحق!.. لقد كان حبا من جانب واحد.. هو جانبه هو.. لا أنا.. أما أنا، فلم يكن له في قلبي أكثر من العطف والرثاء!

من نعم الله على هذا الشاعر أنه مات دون أن يعرف هذه الحقيقة الجارحة.. وأنه عاش ومات في وهم الحب!

قلب الشاعر..

لم تكن لهذا الشاعر الموهوب في تلك المدينة الريفية الحالمة.. الفيوم... ناقة ولا جمل لم يكن له فيها قيراط في بيت ولا في أرض. ولكنه كان يعيش في صخب مجتمع القاهرة، وتحت وهج لياليها الساهرة حتي الفجر في ذلك العهد، تضج بالكأس والطاس، وتضج بالألحان والضحكات وفي واحدة من تلك الليالي الساحرة، تعرف الشاعر على رجل من سراة الفيوم، دعاه إلى قضاء (ويك إند) هناك، بين منابت التين والزيتون على شاطئ بحر يوسف واستجاب الشاعر للدعوة، وذهب غير ملو على شيء وتسلل في هدأة العصر وحده، يتمشي على شاطئ بحر يوسف، ويبحث عن السواقي السبع التي يتحدث عنها الموال القديم:

سبع سواقي بتنعي

لم طفوا لي نار

وبينما هو سائر وئيد الخطا، استوقفه منظر عربة محملة بألوان الفاكهة من تين وعنب وغيرهما، فوقف يتأمل المنظر، إذ هو يحب الفاكهة ولكنه فوجئ إلى جوار العربة بمشهد أجمل من الفاكهة كان صاحب الفاكهة جالسا على كرسيه في ناحية من العربة، يشد أنفاس نارجيلته... وفي الناحية الأخرى، تجلس صبية في أجمل العمر، في نحو (السادسة عشرة)، أو أكثر قليلا، بدوية الملبس واللسان والجمال، مطاطئة الرأس، مشغولة بمغزلها، تغزل عليه بعض الجوارب والطواقي والكوفيات، مما يلبسه أهل الريف، ووقف الشاعر الموهوب على مقربة منها، يتأمل خفة حركة يديها ولعلها لمحت ظله، فرفعت وجهها إليه، فإذا هو آية من جمال الفطرة، لونته الطبيعة القادرة التي لونت الزيتون والتفاح والرمان، وفتنه شبابها وجمالها، فتلعثم في القول وهو يحاول أن يسألها عن أي شيء غير أنها تحدثا في النهاية، واتفقا على أن تصنع له طاقية ونهضت إليه فأخذت مقاس رأسه، وأجرها مقدم

الثمن، وانصرف إلى بيت صاحبه فلم يغمض له جفن طول الليل ومنذ الصباح الباكر، ذهب إليها، بحجة أنه يريد أن يعرف ألوان الطاقية.. وساعة العصر أيضا.. ذهب إليها ليطمئن على أن العمل في الطاقية مستمر على خير الوجوه وكلمة جرت كلمة.. إلى أن باح لها بهواه، فصارحته هي الأخرى، ولكنها سألته ألا يعلق قلبها، فما هي إلا ريفية بسيطة، وهو غريب عن الفيوم، راحل في غد إلى ضجة القاهرة وزحامها، وفي غانيات القاهرة بزخرفهن العريض، ما هو كفيل بأن ينسيه ريفية الفيوم التي تعيش في ركن مهمل من الحياة وعاد شاعرنا في تلك الليلة شجي القلب، لينظم قصيدة من أجمل شعره، عنوانها (ريفية الفيوم)... يقول فيها:

نشأت في منابت التين والزيتون ... في ظل هادلات الكروم
وسقاها من بحر يوسف عذب ... سلسبيل من مسكه المختوم
فسري روحها خفيا لطيفا ... كدبيب المني ومسري النسيم
وتجلت نقية نفسها مثل ... نقاء السماء غب سجوم
هي ريفية وأين غوان ... شامخات الذري، وبيت الهشيم!
تلك في قصرها كلؤلؤة البحر ... توارت في كنها المكتوم
وتبدت هذي كما سفر البدر ... بهيا ما بين زهر النجوم

وأصبح صباح أخر أيامه في الفيوم، ولم تبق على موعد القطار العائد بشاعرنا غير لحظات. هل مر بها.. يأخذ الطاقية.. ويؤجرها بقية الثمن.. ويودعها؟

وهل يكون وداعا إلى غير لقاء.. أو يعود به القدر مرة أخري إلى الفيوم؟

يعود؟

وبأية حجة يعود؟

وفجأة خطرت بباله الحجة المنشودة التي يستطيع أن يعود بها إلى الفيوم، وإلي قلبه الذي تركه بين أنامل الغازلة الحلوة، ريفية الفيوم، تداعبه كما تداعب خيوط الجوارب والطواقي والكوفيات، وخيل له أنها حجة قوية، يستطيع أن يجابه بها صاحبه وداعيه إن

عاد إليه مرة أخري بغير دعوة أنه نسي طاقيته في الفيوم... نسي أن يأخذها من غازلتها الحسناء، ونسي أن ينقدها بقية الثمن وحمل الشاعر حقيبته، وأسرع إلى محطة السكة الحديد وتحرك القطار في طريقه إلى القاهرة، وعينا الشاعر تصبان دمعتين كبيرتين على رصيف المحطة، لعلها ترطبان نسمة تسري إلى ريفية الفيوم.. سافر الشاعر، دون أن يدري أية مأساة يكتبها له القدر مع ريقية الفيوم.. ودون أن يخطر بأبعد أحلامه أنه سيقرأ اسمها يوما ما... مكتوبا بحروف من نور في زحام القاهرة تلك هي المأساة التي أرويها لك أيها القارئ العزيز.

obeikandl.com

٢- قلب الشاعر:
دلال... في روض الفرج

وذات يوم.. فوجئ ذلك الوجيه من سراة الفيوم بشاعرنا يدخل عليه على غير موعد وفرح به.. فشاعرنا روح تملأ الجو بهجة وإيناسا، وهو من ظرفاء عصره وأبرع محدثيه وأصفاهم نفسا... وسأله صاحب البيت:

- أية ريح طيبة حملتك إلينا؟ وأوشك أن يذكر له حكاية الطاقية، ولكنه أدرك أنها حجة واهية، فقد كان في الإمكان أن يكتب لصاحبه فيرسلها له كما أن حجة الطاقية قد تكشف لصاحب البيت ما بين الشاعر وريفية الفيوم، فينفضح أمرهما في البلد الصغير الذي تطول فيه الألسنة، فالتمس حجة أخري، قال:

- والله يا أخي لقد لج بي الشوق إليك، وإلي مجلسك الظريف وحديثك اللطيف، فلم أملك أن أغالبه... وفرح صاحب البيت بهذه التحية الرقيقة، وبالغ في إكرام صاحبه، وتمسك به يومين، ثم ثلاثة، ثم أربعة، وهو يقسم عليه بالله كل يوم أن يمد إقامته ويطيل صحبته، حتي مرت أيام سبعة، وشاعرنا يتسلل كل يوم في الصباح وساعة العصر، وأحيانا في خلوات المساء إلى ريفية الفيوم، يحدثها، يسرها النجوي، ويكلفها أن تصنع له بعد الطاقية طاقية، وبعد الجورب جوربا، وبعد الكوفية كوفية.

كانت على حلاوتها وذكائها ساذجة أمية، لا تقرأ ولا تكتب ولا تعرف حساب الأيام ولا الشهور وإنما تسميها بمواسم الفاكهة وطلوع الهلال واكتمال البدر.. مما ترسمه هذه الصور البديعة التي نظمها شاعرنا في قصيدته الثانية التي ناجي بها ريفية الفيوم يوما ما.

وهل تعرفون أين هذه القصيدة؟ هنا موطن العجب، وموضع العنف في هذه العاطفة القاسية.. طال تردد شاعرنا على الفيوم... إلى أن حانت ساعة الوداع في أحدي

هذه الزورات ووقفت أمامه دامعة العينين، وقد استسلمت يدها الرخصة بين يديه الدافئتين، تسأله متي تكون زورته القادمة، فحدثها باللغة التي تفهمها.. قال: في موسم البرتقال فراحت تعاتبه، وتقول له إن موسم البرتقال بعيد، فليعد قبل ذلك، ومع الهلال التالي- أي في الشهر التالي- على أكثر تقدير ولكنه كان يخفي عنها، وهو يواعدها، حقيقة مريرة أنه لا يدري متي يعود هذه المرة، فهو راحل عن الفيوم.. وعن القاهرة أيضا.. إلى باريس، ليقضي فيها عامين على الأقل، في بعثة دراسية لم يستطع صاحبنا أن يفاجئها بهذه الصدمة، ووعدها بأن يعود في أقرب وقت ممكن.. وذهب إلى باريس.. وجلس في (الكابولاد)... ذلك المقهي الساحر الذي طالما جلس فيه أمير الشعراء شوقي، وتوفيق الحكيم، وجان بول سارتر وغيرهم من أعلام الأدب، في الحي اللاتيني، ومرت به العشرات من حسان باريس في أبهي صورهن وحليهن وزينتهن.. ولكن واحدة منهن لم تمس شغاف قلبه، لأنه كان قد ترك قلبه هناك.. على شاطئ بحر يوسف.. واحدة منهن لم تحرك خياله، لأن خياله مستغرق في ريفية الفيوم، وراح.. في الكابولاد.. ينظم هذه الأبيات الرائعة:-

أذنتنا النوي بوشك ارتحال ... فالتقينا نبكي على الآمال
بي نزاع إلى العناق، وفيها ... لهفة شابها حياء الدلال
سألتني متي يكون التلاقي ... قلت آت في موسم البرتقال
فأجابت: هذا بعيد، ألا ترجع ... من قبل هذه بليال؟
جئت والتين ناضج، وعروش الكرم ... تزهو بها القطوف الدوالي

*****

ومضي العامان... وعاد شاعرنا إلى القاهرة، وفي حسبانه أن يذهب إلى الفيوم في أول فرصة سانحة غير أن القدر كان يدخر له في القاهرة، منذ الليلة الأولي، مفاجأة حياته... هذه الفتاة التي جمعه بها القدر في أولي لياليه بالقاهرة، بعد عودته من باريس... هي التي أصبحت منذ الليلة قصة حياته كلها ونسي بها ريفية الفيوم... ونسي بها الدنيا بأسرها!

ومضي الشهر وراء الشهر، وقصة الحب الجديد تنمو وتزدهر وتلتهب، وهو بها يتعذب وينعم، ويتقلب على الجمر ويغني... إلى أن كانت ليلة فاضت به أشجانه، فأخذته جماعة من محبيه إلى روض الفرج...

كانت (روض الفرج) يومئذ عالما زاخرا بالفن والطرب والمسارح والملاهي وكان الناس يذهبون إليها ليغرقوا همومهم في النيل وينسوا أحزانهم بالكأس هناك ودخل شاعرنا وأصحابه ملهي (سان ستفانو).. حيث كانت تغني رتيبة أحمد.. وترقص الشقيقتان الفاتنتان فاطمة وشمس قدري.. و.. إلخ، وأعلنت إدارة المسرح أن هناك مفاجأة جديدة الليلة.. الليلة.. ترقص لأول مرة.. نجمة المستقبل: دلال وظهرت (دلال) على المسرح، فتنة من مفاتن الله.. ودوت الأكف بالتصفيق، إلا كفين اثنتان جمدتا في حجر صاحبهما هما كفا الشاعر الهيمان أتعرفون من هي نجمة المستقبل التي أسموها دلال؟

إنها ريفية الفيوم!

ريفية الفيوم الساذجة الحيية، غازلة الطواقي والجوارب والكوفيات بجوار عربة أبيها بائع الفاكهة.. التي لا تحسب الأيام والشهور إلا بمواسم الفاكهة وطلوع الهلال واكتمال البدر.. والتي لا تتطلع إلى أحد إلا وهي نصف مطرقة على استحياء.. تقف الليلة نصف عارية على المسرح.. لترقص في سوق الغزل فماذا فعل شاعرنا.. العاشق القديم؟

٣- مأساة دلال

وانتهت رقصة (دلال).. ونزلت الستارة بين دوي التصفيق وهتافات الإعجاب وراحت العيون الجائعة تتطاول وتحاول أن تخرق الستارة لتنال مزيدا من النظرات إلى لحم هذه الحمامة البيضاء. أما شاعرنا.. فقد أفاق من غشيته على نزول الستارة.. فلم يتنبه إلى أنها قد لمحته بين الجماهير وهي ترقص، فاضطرب قلبها، ولكنها تماسكت حتي انتهت رقصتها، فلاذت بالفرار إلى الكواليس، ومن الكواليس إلى مكان خفي وراء المسرح، حتى تتجنب قسوة الموقف المرتقب وتسلل شاعرنا إلى الكواليس يبحث عنها وسأل عمال المسرح عنها.. عن هذه التي يسمونها (دلال) ويحثوا عنها في كل مكان، فلم يظفروا بها وعاد الشاعر إلى بيته يحمل الصدمة..إنها ليست صدمة حب.. فقد انتهت قصة حبه لريفية الفيوم.. انتهت منذ الليلة الأولي لعودته إلى القاهرة.. حين بدأت قصة حبه الكبير للفنانة اللامعة.. قصة العمر كله![1]

ولكنها صدمة على أية حال، أن يري المرء امرأة أحبها يوما ما وهي أطهر من ملاك، ثم يراها بعد لك شبه عارية ترقص للجياع المخمورين وأصر على أن يراها.. وإذا كانت قد اختفت بالأمس، فإنها لن تملك أن تختفي كل يوم، وتهجر الطريق الذي اختطته لنفسها.. لتكون نجمة المستقبل كما قالوا بالأمس!

ومنذ ساعة مبكرة.. ذهب شاعرنا إلى روض الفرج، ورابط جانب باب الدخول وأقبلت ريفية الفيوم.. أو (دلال) كما سموها بالأمس وفوجئت به يقف أمامها وجها لوجه.. وشهقت شهقة طويلة كاد يتمزق لها صدرها وصاحت باسمه.. وصاح باسمها.. باسمها الحقيقي!

وسألها ما الذي قادها إلى هذا المصير؟

قالت له ببساطة: الأيام فاطرق محزونا، وقال: نعم.. أنت تسمينها الأيام، وأنا

أسميها الليالي وتمتم ببيت من القصيدة التي رويتها لكم... التي نظمها من وحيها وهو جالس في مقهي (الكابولاد) بباريس:

لست أخفي عليك إني أنساك ولكن اخشي علينا الليالي أجل.. الليالي ما أعجب الليالي... التي انسته حبه القديم ودفعته إلى حب جديد الليالي.. التي حملتها مع تيار النيل من بحر يوسف إلى روض الفرج وجلسا يستعيدان ذكريات الماضي، وروت له كيف رحل أبوها من الدنيا أثناء غيبته بباريس.. وكيف تزوجت وساء حظها في الزواج.. وكيف نزحت إلى القاهرة.. وعاشت حياة..وعرفت رجالا... إلى أن قادها القدر إلى صداقة طيبة قائمة على التعاطف والود.

ومرت الأيام والشهور.. وحن شاعرنا ذات ليلة إليها، فذهب يلتمسها في روض الفرج، فلم يجدها وسأل عنها من هناك، فقالوا:

- عقبال عندك.. لقد أصبحت مليونيرة وبت... وتساءل:

- مليونيرة.. كيف؟

قالوا له:

- لقد تزوجت واحدا من كبار الأغنياء.. وأخذها واختفى بها من هذا الجو.

ومرة أخري.. مرت الأيام والشهور وكان شاعرنا ذات يوم يزور ملهمته الجديدة..الفنانة اللامعة.. فوجدها تستعد للسفر إلى الصعيد، لإحياء حفلة في إحدى عواصمه.. في بيت أحد الأثرياء وقالت له أتأتي معي!؟ قال لها: ولكني لا أعرفه قالت: ولكنه يعرفك.. الدنيا كلها تعرفك وتحبك وتعتز بك وأخذ حقيبته، وسافر معها إلى الصعيد وفي المساء، بدأت الحفلة.. وجاء صاحب البيت- أو القمر على الأصح- يحيي الفنانة اللامعة ومن معها، فقدمت له الشاعر الموهوب، فاحتفي بمقدمه أيما احتفاء وغاب صاحب القصر لحظات، ثم عاد ومعه زوجته، ليقدمها للفنانة اللامعة والشاعر الموهوب أتعرفون من كانت زوجته؟ أنها هي بعينها.. ريفية الفيوم.. أو دلال كما كان اسمها في روض الفرج!

وكانت المفاجأة الثانية في قدر الشاعر!

المفاجأة الكبري.. له ولها! ووقفا مبهوتين لحظة.. ولكنهما حاولا أن يفيقا بسرعة ويمد كل منهما يده للآخر قائلا: تشرفنا يا أفندم.. ومرت الليلة بسلام.. وكدأب الزمن دائما.. مرت الأيام والشهور.. والسنوات.. السنوات الطوال وكانت الدنيا قد تغيرت.. الليل أصبح نهارا.. والمملكة أصبحت جمهورية.. والاستعمار أصبح حرية.. كل شئ تغير.. فكيف لا نتغير؟

كيف لا يرسم الزمن على ملامحنا غضونا، ويقذف رءوسنا بالشيب، ويرسم تحت عيوننا ظلالا سوداء؟ وذات ليلة.. ذهب شاعرنا إلى ملهمة حياته.. الفنانة اللامعة، فوجدها في غرفة الاستقبال، ومعها سيدة متقدمة في السن، في ثياب سوداء، وقد رسمت عليها السنون كل ما تملك من خطوط الشيخوخة والشقاء والبؤس والحرمان وحمله الحياء على أن يحييها من بعيد، بهزة رأس، ويجلس في ركن من الغرفة، ليترك السيدتين تتمان ما كانتا فيه من حديث ولكن الفنانة اللامعة التفتت إليه تسأله:

- لماذا أنت بعيد هكذا؟ لماذا لا تقترب وتسلم على فلانة..؟ فلانة.. ريفية الفيوم؟ أهذه هي؟ أهذا ممكن؟ وماذا فعلت بها السنون؟ لقد مات زوجها بعد أن أضاع أكثر ثروته. وضن عليها ورثته بنصيبها مما بقي من هذه الثروة.. وطردوها من البيت وجاءت إلى الفنانة اللامعة نسألها أن تمهد لها سبيلا إلى لقمة العيش!

وفعلت.. ولكنها لا تستطيع أن تفعل كل شيء وفعل الشاعر أيضا.. ولكنه لا يستطيع هو الآخر أن يفعل كل شيء.. أن ريفية الفيوم لا تزال على قيد الحياة.. تعاني شظفها في هذه الشيخوخة المجدبة.

لولا ليلة الرومانس

كلما سمعت كلمة لو ازددت إيمانا بمشيئة الله، وإرادة القضاء والقدر، وقلت لنفسي إن هذه الكلمة الصغيرة.. (لو) المكونة من حرفين اثنين، مغرية... مغرية جدا.. تستطيع لو صحت أحلامها أن تغير مصائر الناس ولكنها لا تعني شيئا بالمرة أمام مشيئة الله وإرادة القضاء والقدر لو لم نلتق- صاحبي وأنا- في تلك الليلة العابرة منذ نحو عشرين سنة.. لما انتهت هذه الشابة الفاتنة.. صاحبة أجمل وجه وأجمل جسد عرفته الشاشة.. إلى أسوأ مصير ينتهي إليه إنسان: قطعة من الفحم المحترق! وقبل أن أحدثكم عنها.. دعوني أحدثكم عنه.. عن صاحبي هذا الذي التقيت به في تلك الليلة على غير موعد. كان بكل ما فيه من جمال وشباب وجرأة وذكاء، وحسنات وأخطاء، فلتة من فلتات الدهر كان يصنع أشياء عجيبة، لا يستطيع أن يصنعها إنسان سواه وكان يحب الحياة، ويحب أن يستمتع بكل دقيقة من عمره، وينفق في سبيل ذلك آخر درهم في جيبه ولا يفكر في غده أبدا وفي حياته أحداث مثيرة، لم تقع لأحد غيره في هذا العالم الصاخب.. عالم الفن... لقد عرف المجد كما لم يعرفه أحد، يوم أن خرجت مصر كلها تصفق له وتهتف باسمه وهو في أول الشباب!

وعرف المهانة يوم أن وقف أمام المحكمة في قضية كبري، اهتز لها الرأي العام، وسمع النائب العام يطلب له حكم الإعدام!

ولكنه نجا من المقصلة.. وعاد إلى الحياة الصاخبة ليزيدها صخبا بحادث آخر احتل الصفحات الأولي من الصحف.. يوم أحب حبا كبيرا وقد أحب كما لم يحب أحد غيره... أحب أكثر من واحدة من أجمل نساء مصر.. ولكن هذه الواحدة التي اقترن اسمها بالحادث الكبير.. علمته كيف تكون الغيرة في أوجها، وهو الذي اشتهر بأنه لا يغار من أحد بل يغار الجميع منه، إلى حد أنه لم يملك أن يواجه الموقف إلا بالرصاص..

يطلقه عليها، ثم يطلقه على نفسه! ومع هذا.. فإن أحدا منهما لم يمت.. وانتهت القصة.. لتبدأ في حياته قصة جديدة هي التي أرويها لكم اليوم... كنا في الصيف والتقيت به، بمحض الصدفة وقال لي: (القلوب عند بعضها.. هل تتصور أنني كنت أبحث عنك في كل مكان؟) قلت له: (خيرا) قال: (أريد أن أقرأ عليك القصة التي أستعد لإنتاجها، لعل لك رأيا فيها.. ولعلي أجد عندك نهاية أخرى لها، فإنني غير مقتنع بالنهاية كما وضعها المؤلف) قلت له: (الواقع أنني مرهق.. هارب من زحمة العمل القاهرة.. فدعني أستريح هذا الأسبوع.. وأنا تحت أمرك في الأسبوع القادم)

قال: (وماذا تصنع الليلة؟) قلت له: (أنا ذاهب إلى الرومانس.. أنا في حاجة إلى شيء من الموسيقي)

قال: (وأنا معك) كان الرومانس يومئذ يعج بالحياة والشباب.. وكانت تحتشد إليه كل ليلة أجمل الوجوه القادمة من القاهرة للاصطياف، إلى جانب أجمل الوجوه السكندرية، من بنات الأجانب اللائي كن قوام الحياة الاجتماعية في المدينة قبل الثورة وجلسنا- صاحبي وأنا- في ركن هادئ، والموسيقي تتسلل إلينا من بعيد وبدأ يستدرجني بذكائه الجبار، حتى أوقعني فيما يريد... بدأ يروي لي قصة مثيرة، على أنها قصة واقعية كانت في القصة أحداث لا معقولة، لا يستسيغها منطق الحب. ولكني لم أستغربها منه، لأن كل شيء في حياته كان من لون اللامعقول.. وقبل أن ينتهي من القصة، جمدت عيناه وهما تتركزان على شلة داخلة إلى الرومانس.. فيها شابة في نحو العشرين، من المؤكد أنه لو أقيمت مسابقة للجمال في الإسكندرية يومئذ، لفازت هذه الشابة بعرش الجمال بغير منازع وتأملتها قليلا، وسبحت بحمد الفنان الأكبر الذي أبدع هذه الصورة.. سبحانه وتذكرت قول بيرم التونسي وهو يناجي ربه بزجل بديع يقول فيه:

بذمتي أنت جاذبني... يا معذبني	ويااللي ذوقك يعجبني
لما تصور... لك صنعة في العين والحاجب	بها تتعاجب
وتقول وجود الله واجب	مين به يكفر
ولك يقلدك بحجر ورخام	غلب الرسام
قوالب في الأجسام	يلقاك أشطر

واقتنعت بنظرة إلى هذا الجمال كله.. أخذا بالمقولة المأثورة: النظرة الأولى لك، والثانية عليك أما صاحبي، فقد تاه منه الحديث، ونسي بقية القصة التي كان يرويها لي- والتي اتضح لي فيما بعد أنها قصة الفيلم الذي يهم بإنتاجه- وبقيت عيناه مجمدتين على هذه الشابة الفاتنة أكثر من ساعة، وهي صامت لا يتكلم، كأنما نومه جمالها تنويما مغناطيسيا ولم يفق من ذهوله إلا حينما لمحه مدير الرومانس من بعيد وجاء يحييه .. فسأله صاحبي : "من تكون هذه الشابة" ؟

قال الرجل ضاحكًا: " لا تتعب نفسك معها .. إنها مسافرة غدًا .. إلى غير رجعة"

قال صاحبي منزعجًا: إلى أين؟

قال الرجل: "إلى قبرص .. لتتزوج هناك .. فإن خطيبها، وهو شاب قبرصي تعرف إليها في الشتاء الماضي بالإسكندرية، ينتظرها هناك لإتمام الزواج. وستسافر غدًا وهؤلاء أصدقاؤها في الإسكندرية يحتفلون بوداعها الليلة"

قال صاحبي، وكأنه يهمس لنفسه: "لا .. لن تسافر أبدًا"

وانصرف مدير الرومانس ..

ويقيت أنا في صمتي لحظات، قطعها صاحبي بقوله في إصرار "سأكلمها"

قلت له : " لاتكن أحمق، ولا تثر فضيحة جديدة من فضائحك فإنها ليست وحدها"

قال: "سأكلمها .. مهما يكن"

ويقى طول الليل يرمقها بعينيه، إلى أن نهضت الشابة إلى المكان الذي تستطيع فيه أن تصلح من "ماكياجها" .. وإذا بصاحبي يقفز من مكانه، ويسرع إليها ويقف في وجهها معترضًا سبيلها قائلًا لها: بونسوار مدموازيل

قالت له : "هل أستطيع أن أعرف من أنت؟ "

وذكر لها اسمه، فهزت كتفيها وحاولت أن تمضي إلى سبيلها . ولكنه لم يفسح لها ثغرة تنفذ منها .. وأضاف قائلًا:

أنا منتج سينمائي .. هل تحبين أن توقعي عقدًا قيمته ثلاثون ألف جنيه كل سنة؟

...ثلاثون ألف جنية؟ !

داخت الفتاة من سماع هذا الرقم الذي لم تسمع به في حياتها وانتهز صاحبي فرصة هذا "الدوخان" .. وأفسح لها الطريق، قائلًا:

- فكري في الأمر يا آنسة .. وإذا راق لك هذا العرض، فأنا على هذه المائدة .. مع هذا الصديق وأشار إلى المائدة .. التي تركني عليها وحدي.

بعد عشر دقائق، كنا ثلاثة حول المائدة- هو وهي وأنا- وتحدثنا كثيرا، وقال لها في النهاية، الآن.. تستطيعين أن تعودي إلى أصدقائك. وأمامك الليل بطوله للتفكير في الأمر.. وهذا رقم تليفوني. فإذا وافقت على العرض، فاتصلي بسكرتيري في الصباح ليرسل لك سيارتي لتأخذك إلى مطار الدخيلة.. عندي هناك طائرة خاصة.. وفي مطار القاهرة ستجدين سيارتي (الكورد) في انتظارك، أما أنا، فستجدينني في مكتبي في أي وقت، وهذا هو العنوان وقدم لها بطاقته.. وقالت وهي نصف ذاهلة:

- وتذكرة قبرص ماذا أصنع بها؟

- هذا من شئونك الخاصة وقال لي: ياللا بينا.. ثم التفت إليها قائلا:

- متأسف يا آنسة.. أنا مضطر إلى تركك الآن.. لأعود إلى القاهرة

- متي؟

- الآن

وعاد إلى القاهرة بعد منتصف الليل.. أما هي، فلم تنم طول الليل!

كان الرقم ٣٠,٠٠٠ يتراقص أمام عينيها طول الليل ٣٠,٠٠٠ جنيه كل سنة، رقم كفيل بأن يغنيها عن ذلك العش المتواضع الذي ينتظرها في قبرص، ويعبد لها الطريق إلى كان ونيس ودوفيل وفوق ذلك: مجد، وشهرة، وأضواء ولكن.. هل يمكن أن يكون ذلك كله حلم ليلة صيف؟... هل يمكن أن يكون كل ما سمعته الليلة أكذوبة كبري؟... على أية حال، فلتنتظر حتي يطلع الصباح وطلع الصباح ودقت التليفون.. وجاءت سيارة (بويك) فاخرة حملتها إلى مطار الدخيلة وفي المطار، وجدت الطائرة الخاصة.. وفي مطار القاهرة، وجدت السيارة الكورد.. ووجدت سكرتيرا ثانيا يسألها عما إذا كانت تريد أن

تستريح قليلا وسألته: (أين أستريح؟) قال: كما تشائين يا سيدتي.. وعرض عليها أربعة حلول:

شقة فاخرة بعمارة اسيكورا زيوني بشارع عماد الدين.. أو فيللا أنيقة بشارع الهرم.. أو عائمة على النيل.. أو جناح بفندق سميراميس ولأمر ما اختارت الشقة الفاخرة وبدأت قصة الحب.. ثم بدأت الفن.. وعاشت هذه الفاتنة في دنيا الفن، كأجمل وجه وأجمل جسد على الشاشة وفجأة.. طلعت الصحف ذات صباح، وعلي الصفحات الأولي منها صورة جثة محترقة.. احترقت في طائرة قادمة من الإسكندرية إلى القاهرة، فلم يبق من معالم كل ذلك الجمال إلا قطعة من الفحم!

وقرأت الخبر.. ودمعت عيناي.. وقلت لنفسي.. لو لم تذهب إلى الرومانس في تلك الليلة... ولكن.. ما قيمة (لو).. أمام مشيئة الله![1]

بيرم

منذ أربعين سنة أو نحو ذلك – قالها بيرم ولم يقلها همسًا، بل قالها مرتفعة مجلجلة مدوية، حينما أغري الإنجليز نفرًا من رجال الأزهر وشيوخ الطرق الصوفية- بكل أسف- بأن يحاربوا الحركة التعاونية التي كان يبشر بها رائد التعاون في مصر، المرحوم عمر لطفي، فراحوا يحرضون الناس على أن ينفضوا من حول عمر لطفي وحركته البلشفية وكان على رأس هؤلاء الشيوخ،الشيخ (٠٠٠)، فكتب بيرم مغضبًا يقول له:

جماعة شافوا الغلابة ميتين من الجوع
حنوا عليهم وقاموا وضبوا مشروع
جاي أنت بتقول دا دين البلشفيك ممنوع
وايش دخل البلشفيك في نجدة الإنسان
لا في الجوامع رأيت مثلك ولا في الدير
عالم ومسلم ويتعارض في فعل الخير
مادام فضيلتك بتاكل كستليتة وطير
يبقي الدريس والدرة والفجل للخرفان.

عاش بيرم يقاسي شظف العيش طوال زهرة العمر، ولم تواته النعمة إلا في أخريات أيامه، بعد أن أدركته الشيخوخة وأثقل عليه المرض، فلم تعد للمال لذته وروي لي رامي أنه رأي بيرما قبيل وفاته بأيام في دار الإذاعة يتسلم بضع مئات من الجنيهات لقاء بعض نتاجه وأمسك بيرم بالمال يهزه في راحتيه، ويتأمله في ابتسامة مرة، ويقول لصاحبه:

- شوف يا رامي: وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل

كانت الدنيا حربا عليه منذ طفولته إلى أن عاد من المنفي، ولهذا بقيت في فمه مرارة الحرمان- حتي بعد زوال الحرمان- بقية حياته، وأشهد ويشهد كل عارفيه أن أحدا لم يره يضحك مرة واحدة!

عرفت بيرما في منفاه، بالمراسلة وقصة ذلك، أنني كنت إذ أنا طالب بالجامعة، عضوا بجمعية (أبوللو) للشعر، التي كان يرأسها أمير الشعراء، ويتولى الدكتور أحمد زكي أبو شادي أمانتها وكان شوقي يتعشق أدب بيرم وكان أبو شادي لايفتأ يحدثنا عن بيرم ويروي أدبه وكان بيرم يومئذ في باريس، يتلوي من الطوي، ويعمل في مصنع للبيرة وقر رأي جماعة أبوللو على أن تصدر مجلة للأدب الشعبي، اسمها (الإمام)... يحررها بيرم من منفاه، من الغلاف إلى الغلاف، لا يشاركه فيها أحد بكلمة واحدة ووافق بيرم، فكان يرسل لنا مواد المجلة بطريقة سرية، ونرسل له أجره بطريقة سرية، خشية أن تتسرب المواد القادمة والنقود الذاهبة إلى السلطات الساخطة على بيرم فتصادرها وحين عاد بيرم من منفاه متسللا متخفيا، كنا نلتقي به سرا في بعض مجاهل حي السيدة زينب ثم رفع عنه الحظر وظهر في المجتمع، وأقبل عليه الكثيرون من معجبيه يجالسونه ويصاحبونه ويسامرونه ولكن أكثرهم مالبث أن انفض عنه، لجهامته وقلة ابتسامته، ومرارة حديثه، وسوء ظنه بالناس، إلى حد أنني شهدت له ذات يوم موقفًا قاسيا مع صديق عمره شيخ الموسيقيين زكريا أحمد، يصرخ فيه بيرم في وجه صاحبه:

- بأي حق تأخذ أنت من الإذاعة ثلاثمائة جنيه أجرا على أغنية أؤلفها أنا بعشرة جنيهات... ولولا أنني أؤلفها ما وجدت ما تلحنه؟

واحتمل زكريا، رحمه الله، قسوة العبارة على مضض وكنت أقول لمحبي بيرم وهم ينقضون عنه، ويلحاه بعضهم في الصحف:

- افهموه يا ناس... وفدروا قسوة ماضيه عليه... وارحموه واغفروا له

وقد كنت أغفر لبيرم هناته، وأحتمل غلظته، وأدفع عنه قول الغاضبين منه، وذات يوم صدر لي كتاب اسمه (ملوك وصعاليك) وفيه فصل عن بيرم كله تمجيد لأدبه وعندما قرأ بيرم هذا الفصل، وكان في بيت زكريا، هز رأسه، وقال لصاحبه:

- يا شيخ زكريا.. هو صالح جودت ده حد مسلطه علي؟

- ليه؟

- يا أخي دا نازل مدح في بمناسبة ومن غير مناسبة... لازم حد بيديله فلوس علشان يمدحني!

إلي هذا الحد كان ظنه بالناس!

وأذكر مرة أنني قابلته في الطريق محزون النفس، فسألته عما به، فشكا لي من كثرة الألسنة التي تتطاول عليه في الصحف، فاستدرجته معي إلى مكتبي بدار الهلال وأخذت أسأله ويجيب، وأسأله ويجيب، وأسجل السؤال والجواب على الورق فقال لي: ماذا تصنع؟

قلت: آخذ منك الحجة في الرد على هؤلاء الذين يهاجمونك،لأكتبها في (المصور) فابتسم ونهض يقول لي:

- بأه جايبني لحد هنا عشان تاخد مني حديث تفبض فيه عشرين جنيه... وأنا مخدتش حاجه؟

ولم أغضب... ولكني أقسمت له أنني لا (أقبض) بالمقالة... بل إن لي مرتبا ثابتا لا يزيد منه ولا ينقصه أن أنشر هذا الحديث أو لا أنشره، وكل غايتي من هذا الحديث أن أدافع عنه وصدقني، واطمأن، وجلس، وواصل حديثه!

كان حنينه إلى الوطن- إذ هو في منفاه- ندا لحنين شوقي إذ هو في الأندلس وحينما يقول شوقي في سينيته المأثورة في حنينه إلى مصر:

اختلاف النهار والليل ينسي
اذكرا لي الصبا، وأيام أنسي
وطني لو شغلت بالخلد عنه
نازعتني إليه في الخلد نفسي

فإن هذا الحنين في جذوته لا يقل عن حنين بيرم حين يقول بالدارجة:

عالسين يا مصر مشيت
يمكن يسلميني

فيهـــــا عـــــشق جوليـــــت
تركـــــي عـــــلى صـــــيني
يامـــــا لقيـــــت ورأيـــــت
جمـــــال ينـــــسيني
واتفكـــــر الهـــــرمين
تجـــــري الـــــدموع تـــــاني

*****

أن بيرم- ولا سيما في سنواته الأخيرة- شديد التقوي، مكثرا للصلاة، وثيق الصلة بالله وثوق المنصوفة... وله في التصوف- على أسلوبه- ما لم يصل إليه ابن الفارض والبوصيري ومحيي الدين بن عربي بأساليبهم، ومن ذلك قوله يخاطب الله بكل بساطة مؤمنة:

بـــــذمتي انـــــت جـــــاذبني
يـــــا معـــــذبني
ويـــــاللي ذوقـــــك يعجبنـــــي
لمـــــا تـــــصور
لـــــك صـــــنعة في العـــــين والحاجـــــب
بهـــــا نتعاجـــــب
ونقـــــول وجـــــود الله واجـــــب
مـــــين بـــــه يكفـــــر؟
ولـــــك قوالـــــب في الأجـــــسام
غلـــــب الرســـــام
يقلـــــدك في حجـــــر ورخـــــام
يلقـــــاك أشـــــطر

ويأخذك من بيرم، بعد اشتراكيته ووطنيته وصوفيته، رقته... هذه الرقة الكفيلة بأن

تفرد لها دراسة كاملة، إذ أن هذه الرقة الراسبة في أعماقه، لم تكن لتبدو على سماته أو تخرج إلى تصرفاته إلا عندما يكتب... وعلي حلاوة غزله، وإبداعه في وصف المرأة، فإنه كان نظيرًا لأمير الشعراء في عدم إيمانه بالحب الواحد!

أن شوقي، الذي قال:

الحيـــــاة الحـــــب والحـــــب الحيـــــاة
هـــــو مـــــن فتنتهـــــا سر النـــــواه

والذي قال:

وعنـــدي الهـــوي، موصـــوفه لا صـــفاته
إذا ســـألوني مـــا الهـــوي قلـــت مابيـــا

والذي قال في مجنون ليلي:

كـــل شيء مـــاخلا الحـــب عبـــث

شوقي هذا... لم يتعلق بحب واحد في حياته، بل كان يلقي في كل امرأة جديدة معني يأخذه ويترك صاحبته، مصداقا لقوله في موازنة بين لون الكونيداك والويسكي، هذا أصفر وذاك أحمر:

حمـــراء أو صـــفراء، إن كريمهـــا
كالغيـــد، كـــل مليحـــة بمـــذاق

وكان يردد هذا المعني دائما لرامي حين يراه متشبثا بحبه لامرأة واحدة كان يقول له:

- يا واد سيبك منها... النساء دول معاني... اقطف المعني من الواحدة وسيبها على طول!

كذلك بيرم.. قال لي: إنه لم يعرف الحب مرة واحدة.. حتي في باريس مدينة الحب ومع هذا، فقد قال في الحب، وفي وصف المرأة، ما لم يقله شاعر ولا زجال.

******

وأعود إلى المناقشة الهادئة التي سجلتها على صفحات العدد الماضي من (الهلال)... مناقشة المعركة الدائرة حول الشعر، قديمه وحديثه وبالهدوء نفسه، أقول إن لجنة الشعر حينما تصدت في مذكرتها للعامية في الشعر، لم يخطر ببالها قط أن تنكر الزجل، فالزجل في مستقل عن الشعر، له كرامته في دنيا الأدب، وله مكانته في قلوب الناس، خاصتهم وعامتهم والدليل على هذا أنني أحدثكم هذا الحديث عن بيرم، وأنا عضو في لجنة الشعر وإنما قصدت اللجنة إنكار تسرب العامية إلى الشعر، حرصا على سلامة الفصحي.. بهذه المناسبة، أقول إن بيرم عاش ما عاش، يفخر بأنه زجال، ولم يزعم يوما أنه شاعر، مع أن له شعرا كثيرا، جادا وفكها، ومع أنه ارتقي بالزجل إلى مستوي الشعر والفرق الوحيد بين الشعر والزجل، أن هذا نظم دارج، وذاك فصيح وعندي أن براءة الزجال من بضاعته، كبراءة الكاتب من قلمه، وبراءة الموسيقي من آلته وبالهدوء نفسه، نناقش مسألة القديم والجديد في الزجل، بعد أن أصاب الزجل في هذين العامين- لأول مرة في تاريخ الأدب- ما أصاب الشعر من عزوف عن القافية والوزن، باسم التجديد، وبحجة أن الشكل القديم لا يتسع للمضمون الجديد... لقد مارس بيرم جميع أوزان الزجل وقوافيه، سهلها وصعبها، ضمنها جميع المضامين الثورية:

ومن صعب ما خاض من البحور، هذا المثل:

حاتجن ياريت يا خواننا ما رحتش   لندن والا باريز

دي بلاد تمدين ونضافة وذوق ولطافة   وحاجة تغيظ

وهذا المثل:

يأهل المغني دماغنا وجعنا دقيقه سكوت لله

وجدد بيرم وابتكر في أوزان الزجل وأشكاله وقوالبه، دون أن يجترئ على التفعيلة، أو يتمرد على الوزن والقافية فأتي بالإعجاز الذي يتجلي في الكثير من مبتكراته، كمبتكره (الأوله) التي قلده فيها كثير من الزجالين، ومن نماذجها الأولي عنده، من نتاج المنفي:

الأوله مصر... قالوا تونسي ونفوني   جزاة الخير.. وإحساني

والتانيه تونس وفيها الأهل جحدوني   وحتي الغير... ماصافاني

والتالته باريس.. وفي باريس جهلوني   ونا موليير... في زماني

ومن أبدع مبتكراته في القالب الزجلي، هذا الأنموذج من نتاج المنفي، يصف به فاتنات الشارع الكبير (الجران بولفار) في باريس:

* شـــــوف الخفـــــــه...
أم الـــشعور اللفـــه فـــوق اللفـــه
غـــير أم شـــعر طويـــل
* والمقـــــــصوعه...
ورجلهـــا فـــوق أختهـــا مرفوعـــه
تـــستنظر الطوميـــل
* والحرانـــــــه
مـــن المعاصـــم للكتـــاف عريانـــه
زي إلـــلي غاســـله غـــسيل
*والملفوفـــــــه...
بـــاين عـــصبها والنهـــود مكـــشوفه
مـــا خلـــت إلا قليـــل
* والمحتـــــــاره...
بالـــشنطة والشمـــسية والنـــضاره
رايحـــة عـــلى التمثيـــل
* والغنـــــدوره...
تحـــسبها لـــولا مـــشيها صـــنيوره
والا أم خـــصر نحيـــل
* طـــالع نـــازل...
لـــولا مـــا هـــي ماســـكه دراع الراجـــل
مـــن لمـــسة واحـــدة يميـــل

في هذا الزجل آية التجديد، فقد استخدم بيرم بحرًا واحدًا، استغله في كل مقطع من مقاطع الزجل على ثلاث صور، من البحر المكتمل ومجزوئين منه مختلفين، وسار في جميع المقاطع على نسق واحد متكرر

وهكذا شحن المقطوعة بالموسيقي، وجاء فيها بآية التجديد، دون أن يفسد جمال الوزن والقافية.

مثل هذا نقبله من كل زجال ومن كل شاعر، بل نفرح به ونهلل له من الأعماق.

obeikandl.com

الراقصة والملك

الذين لم يعيشوا العهد الماضي، لا يستطيعون أن يتصوروا ما كان يحدث فيه

كانت للملك سبع "جرسونيرات" في القاهرة وضواحيها" عدا جرسونيراته الكبيرة ... أعني القصور الملكية ... وعدا الاستراحات الحكومية التي طالما سخرها الملك للغرض ذاته.

من هذه الجرسونيرات السبع .. الجرسونييرة عجيبة .. كانت في الأصل مخبأ لقائد قوات الحلفاء أثناء الحرب الكبرى، في صحراء الهرم، تقع تحت الأرض، وتغطيها رمال الصحراء...

وكانت مجهزة على وجه يليق بمقام الفيلد مارشال الإنجليزي، قائد قوات الحلفاء ... فهي مكيفة الهواء مزودة بجميع أنواع الطعام والشراب والأغذية المحفوظة وأطقم الصيني والفضة والكريستال ... إلخ ... وفيها غرفة نوم ... وصالون ... وبار فاخر ... وقاعة للعب.

فلما رحل عنها الماريشال ... استولى عليها فاروق، وأضافها إلى أوكار ملذاته.

في هذه الجرسونيرة، كانت الليلة الأولى للراقصة الفاتنة التي نزلت عليها الستارة منذ سنوات قريبة ... ورحلت في صمت ... بعد أن زال عنها الشباب وذهب المال وذوي الإعجاب وانطفأت الأضواء.

*****

كنت يومئذ حديث عهد بالتخرج في الجامعة، وقد التحقت ببنك مصر كباحث اقتصادي. وكنت في الوقت ذاته أمارس هوايتي للصحافة الأدبية والفنية في ساعات المساء. وذات ليلة .. كنت في مكتب صديقي الدكتور "أ" رئيس تحرير المجلة الأدبية التي كنت أشرف على باب الشعر فيها ... حينما هبط علينا ناقد معروف، من أبناء بورسعيد، وجلسنا نتسامر في شئون مختلفة.

وروى لنا هذا الصديق حكاية حدثت في الطريق، وهو قادم من بورسعيد، حلاصتها أن صبية حسناء ... حسناء إلى حد باهر ... ركبت القطار من الإسماعيلية وجلست إلى جانبه في صالون الدرجة الثانية، ولم يكن بالصالون غيرهما فكان طبيعيًا أن يتحدثا معًا..

وتحدثا عن نوافذ الصالون ... هل تبقى مفتوحة أو تغلق ... ثم عن الجو ... ثم من أنت. ومن أنت... إلخ.

وقالت له إنها من أسرة دون المتوسطة في الإسماعيلية، وأنها يتيمة الأبوين، وأنها تقيم عند خالتها منذ سنوات، ولكن خالتها هذه فقيرة، تضيق بلقمتها، ولهذا قررت الصبية أن تركب القطار، وتذهب إلى القاهرة، التماسًا للقمة العيش.

ولكن ... كيف؟

إنها لا تدري شيئًا... لا تدري إلا أن القاهرة مدينة واسعة، رحيمة، ذات قلب كبير، ولن تضن عليها بلقمة العيش ... حتى كخادمة في أي بيت. وأشفق صاحبنا عليها...

وتأملها مرة أخرى...

إنها صبية فاتنة ... في ربيعها السادس عشر ... ذات غدائر كستنائية طويلة ... وعينين معسولتين حافلتين بالإغراء.

يستطيع صاحبنا – بدافع الإنسانية وحدها – أن يأخذها معه ويعود بها إلى بيته في بورسعيد.

ولكن المشكلة الكبرى أنه أعزب، وأنه خاطب، ودخول صبية كهذه، بكل هذه الفتنة، إلى بيته ... خليق بأن يثير حوله ألف مشكلة ويحرك ألف لسان.

ثم إنه يعرف خطيبته جيدًا .. يعرف أنها غيورة،حمقاء الغيرة، ولن تحتمل خادمة بهذه الفتنة لحظة واحدة ... لأي سبب إنساني أو غير إنساني.

وسألناه ماذا فعل

فأطرق لحظات ... ثم قال :

- لا شيء ... إنها تنتظر..

- أين؟

- هنا .. تحت .. عند البواب.

- وماذا أنت فاعل بها؟

- لست أدري...

وتحرك صديقنا الدكتور "أ" .. رئيس التحرير ... وقال لصاحبنا :

- أنا أنقذك من هذه الورطة .. لقد خرجت خادمتنا منذ أسبوع وقالت إنها ذاهبة إلى البلد ليومين اثنين ... وذهبت ولم تعد.

وتنفس الناقد الصعداء ... وهبط الرجلان، وسار الدكتور "أ" .. بالصبية إلى بيته .. وبقيت أنا بإدارة المجلة أراجع حصيلة الأسبوع من الشعر، وألقى بأكثره إلى سلة المهملات.

وألقت زوجة الدكتور أ ... – وهي إنجليزية – نظرة واحدة على الصبية، ثم هزت رأسها في عصبية، وحدجت زوجها بنظرة قاسية، قائلة في غلظة : NO.

وأدرك المسكين أن المناقشة معها لن تجدي، فأخذ الصبية من يدها، وعاد بها إلى إدارة المجلة.

وفوجئت بها...

ودار الحديث بيني وبينه بالإنجليزية ففهمت ما حدث.

وسألته : وماذا تنوي أن تعمل؟

قال : هل تستطيع أن تأخذها إلى بيتك؟

قلت له: مستحيل .. إن زوجتي أكثر حماقة من زوجتك ... ألف مرة...

فهز رأسه .. وقال :

- حسنًا ... سأتركها تبيت هنا ... على هذه الكنبة ... وننزل ... وفي الصباح يحلها ألف

حلال وتركنا الصبية ... وكان النوم يرين على عينيها بعنف ... ولا شك أن النوم استغرقها بعد خروجنا بدقيقة واحدة على الأكثر.

*****

مصير هذه الصبية بعد ذلك عجيب...

في الصباح اتصل رئيس التحرير بالناقد الذي رزأه بهذه البلوى، يسأله أن يحملها في أسرع وقت، قبل أن تبدأ الحركة في إدارة المجلة.

وكان الناقد قد وجد الحل ... كان قد سهر ليلته في صالة بديعة ... مع الراقصة "ل" وقد قص عليها قصة الصبية الحسناء، فقالت له صاحبته:

- اخص عليك ... كنت هاتها لي ... وأنا بقى لي شهر مش لاقية خدامة.

وذهب الناقد من مطلع اليوم إلى إدارة المجلة، وأخذ الصبية، وذهب بها إلى بيت الراقصة "ل" ...

وطابت لها الحياة هناك.. حياة مرح ورقص وموسيقى ... وملابس كثيرة تخلعها عليها الراقصة "ل" ... وبقشيشات من المعجبين، بل ونظرات مقبلة من ذلك النوع المنحرف من الرجال، الذي يحب الخادمات الفاتنات.

وجعلت الصبية تذهب إلى الصالة مع سيدتها كل ليلة، تحمل لها حقيبة ملابسها، وتنتظرها في هذا الجو الصاخب إلى أن تنتهي الليلة فتعود معها إلى البيت. وأحبت الرقص... وبدأت تهز جسدها أمام المرآة.. وأحيانًا ... في غيبة سيدتها، كانت تمد يدها إلى بدلة رقص من دولاب سيدتها، وتلبسها، وتدير الجراموفون، وترقص وترقص وترقص وتطل بين الحين والآخر إلى المرآة تتأمل نفسها بإعجاب.

ومرة ... وهي سارحة في حلمها وصوت الموسيقى يذاع... فوجئت بسيدتها أمامها وهي على هذه الحال ... وببدلة الرقص.

ولم تغضب سيدتها ... ولم تغر ... كانت شابة طيبة القلب ... قبلتها قائلة :

- والله برافو عليكي يا بت فإنتي بيجي منك أوي.

وصدقت نبوءة الراقصة "ل" ...

ولم تتم الصبية عامًا واحدًا في بيت الخدمة، حتى كانت هي الأخرى راقصة من نجوم صالة "بيجو بالاس" ... التي كانت تقوم في شارع عماد الدين في ذلك الوقت، ولا يفصلها عن صالة بديعة أكثر من عشر خطوات!

*****

وذات ليلة ... أقامت الأميرة شويكار – غفر الله لها – حفلة من حفلاتها الساهرة الصاخبة باسم البر .. البر المسكين .. وكان على رأس الحاضرين، الجالس على العرش.

وبدأ البرنامج ... وغني من غنى ... وعزف من عزف ... ورقص من رقص ... إلى أن جاء دور الرقص الشرقي، وكانت نجمته في تلك الليلة هي صبية الإسماعيلية ... الخادمة السابقة ... والنجمة اللاحقة "ع"...!

وصعدت إلى المسرح ... ورقصت وافتتن بها الجالس على العرش! واستدعى كبير الياوران. وأمره يحجزها لجلالته في آخر الليل.

وفي آخر الليل، كانت الخادمة السابقة، والراقصة اللامعة، مع الجالس على العرش في الجرسونيرة التي حدثتكم عنها في مطلع هذه الحكاية ... الجرسونيرة النائمة تحت الرمال في صحراء الأهرام!

*****

ومر أسبوع ... دون أن تظهر الراقصة "ع" ... على مسرح البيجو بالاس ... وجمهور الصالة والصالات الأخرى يتساءلون أين ذهبت...

وفي اليوم التالي كنت أنا أول من عرف السر الكامن وراء اختفاء الراقصة اللامعة حين زارتني في مكتبي ببنك مصر، لأساعدها على فتح حساب جار في البنك ... لأول مرة في حياتها ... لأنها – كما قالت لي – تملك خمسين جنيهًا لأول مرة في حياتها!

وأعددت لها الأوراق اللازمة ... وناولتني المظروف الذي يحتوي على الجنيهات الخمسين.

وقرأت على المظروف من الخارج هاتين الكلمتين : الديوان الملكي!

ولم تكن الحكاية في حاجة إلى استدراج لمعرفة سر هاتين الكلمتين، فما كدت أسألها:

- من أين لك هذا؟

حتى قالت لي ... بكل صراحة :- لقد أصبحت عشيقة الملك

وضحكت ... وقلت ساخرًا :- عشيقة الملك ... بخمسين جنيهًا؟

قالت :- يبدو أنه بخيل.

قلت لها :- أجر كم ليلة؟

قالت :- سبع ليال.

قلت لها :- يا بلاش!

obeikandl.com

امرأة وثلاثة رجال

كانت هي يومئذ .. هذه المغنية الصغيرة الحلوة ... فوق العشرين بقليل وكانت عذبة الصوت .. وكانت تحس بطاقاتها الكامنة.

كانت تحس أن فيها طاقات كبيرة كامنة، تنتظر أن تتفجر وتنطلق بها إلى القمة.

القمة ... هذا هو الحلم الذي عاشته الصغيرة بضع سنوات من فجر حياتها الفنية.

وفي سبيل هذه القمة، نسيت نفسها وشبابها وعواطفها.

كانت القمة هي حبها الكبير الذي تنشده ... فلم تبال هذه القلوب الكثيرة التي تبعثرت تحت قدميها، ولم ترحم تلك الدموع المدرارة التي انسابت من أجلها.

بين أصحاب هذه القلوب ... الوزير الكبير – من وزراء العهد البائد – الذي كان يبدو في عيون الناس كأن قلبه قد من صخر.

كان هذا الوزير الكبير يبكي بين قدمي المغنية الصغيرة كما يبكي الطفل مستضعفًا بين يدي أمه وبين أصحاب هذه القلوب .. فلان باشا ... عين أعيان مديرية الدقهلية ... الذي كان يغدق عليها الهدايا والذهب والفضة .. دون أن يحرك شعرة من رأسها .. لأنها لا تريد ذهبًا ولا فضة تريد القمة...

وبين أصحاب هذه القلوب، فلان ... وهو من أكبر رجال القصر .. وعلان .. وهو من أعلام الطب في مصر .. وترتان .. وهو قاضي القضاة.

ولكن المغنية الصغيرة ظلت على إصرارها .. لا تطلب إلا القمة .. ولا تجد في أهل الوزارة ولا أهل الغنى ولا في رجال القصر ولا في أعلام الطب والقضاة من يعيد لها طريق المجد أو يبيع لها سلم القمة.

وأخيرًا .. أدركت الطريق، وعرفت مكان السلم.

أدركت أنها في حاجة إلى الشاعر الغنائي الذي تلتهب عواطفه بحبها، والملحن الذي يحترق قلبه من أجلها، والكاتب الذي يتأجج باللهفة عليها.

هؤلاء الثلاثة .. هم سبيلها إلى القمة .. فلتنشدهم .. ولتدخل في روعهم أن كلًا منهم هو الأثير عندها، والمستأثر بحبها .. إلى أن يتفانوا في تعبيد طريقها إلى القمة، ولا يهمها بعد ذلك أن تحترق قلوبهم وتتحول إلى رماد .. ما دام هذا الحريق ينير لها طريق المجد .. وما دام هذا الرماد هو مادة الأسفلت التي تعبد السبيل إلى القمة.

*****

هناك نوع من النساء – وهذا أفضل نوع من النساء – يستطيع أن يعطي عاشقيه كل شيء، دون أن يعطيهم شيئًا!

عملية خداع..

ولكنها عملية خداع ماهرة باهرة .. تستطيع بها المرأة التي من هذا النوع، أن تعلق قلوب الرجال حولها، وتقنع كلًا منهم بحبها، وبأنه هو الأثير عندها، والوحيد في حياتها..

ويسمع هو همساتها، ويلمس أطراف أناملها، ويشهد بريق عينيها، فيعتقد أنها أعطته كل شيء .. وتعرف هي أنها أعطته لا شيء!

وإذا أدركت الرجل نوبة أفاقته من هذه الغيبوبة. بادرته هي بشيء من الدموع .. فلا تلبث هذه الدموع أن ترده إلى غيبوبته، وتغرقه في سكرته باللا شيء .. الذي يحس هو بأنه كل شيء.

كانت الكاتبة "مي" من هذا النوع..

ولهذا تعلقت بها عشرات من أكبر القلوب في مصر : قلوب أحمد لطفي السيد وشبلي شميل وإسماعيل صبري وخليل مطران وعباس محمود العقاد وغيرهم من قادة الفكر في الجيلين السابقين.

لم يأخذ أحد منهم شيئًا منها .. حتى ولا قبلة .. ومع هذا. فما من واحد منهم لم

يحس أنها أعطته كل شيء.

هذا النوع من النساء نادر .. ولكنه لذيذ.

مثل هذه المرأة .. تستطيع أن تسميها "نصف قديسة" .. لأنها تعيش في جو صارخ بالحب، بجسد متماسك لم يمسسه بشر..

وتستطيع أن تسميها أيضًا "نصف شريفة" .. لأنها لم تعصم روحها عن الهوى، وإن عصمت جسدها عنه.

وحتى إذا التقت برجل خبير بنفسية المرأة، إلى الحد الذي يستطيع معه تمزيق قناعها، وأدرك أنها "نصف قديسة" .. أو "نصف شريفة" .. فإنه قد لا يملك أن يرفض حبها، وأن يقبلها على علاتها.

أعرف شاعرًا خبيرًا بالنساء، أحب امرأة من هذا النوع، وقال فيها: (*)

سيان إن أخلصت أو خنت ... أني أحبك مثلما أنت

ألقي بك الأنثى إذا انفجرت ... وأشم فيك براءة البنت

من أي طينة راهب نزق ... يتعشق الدنيا تكونت؟

فيك الخطيئة والخلاص معا ... يتلونان ... وكم تلونت؟

بطهارة العذراء ذبت تقى ... وبلهفة الأنثى تزينت

ما بالوفاء كبرت في نظري ... أو بالخداع صغرت

أو هنت أنت الحياة ... وكنت أجهلها ... أن الحياة كما تبينت

ألقاك لي، فأقول يا ترفي ... ولآخر، فأقول أحسنت..

لم نبتعد كثيرًا عن الموضوع، وإن استدرجنا حديث المرأة والشعر إلى هذا الحد.

لم نبتعد .. لأن صاحبتنا كانت من هذا النوع الفريد من النساء .. الذي يعطي كل شيء دون أن يعطي شيئًا .. ولأنها بحثت – أول ما بحثت – عن شاعر.

ووجدت أمامها شاعرين ... لا شاعرًا واحدًا .. يستطيع اسم أي منهما أن يمهد ثلث الطريق إلى القمة.

وألقت شباكها على الأول.

ولكنها بغريزتها الذكية أدركت لأول وهلة أنه لا يصلح لها، لأنه كان مشغولًا عنها بمغنية أخرى وتستطيع هي أن تخوض المعركة، وتستطيع أن تصرع الأخرى وتغتصبه منها.

ولكنها لا تحب خوض المعارك .. لأن المعارك تتطلب وقتًا، وهي تريد أن تصل إلى القمة في غير وقت.

وألقت شباكها على الشاعر الآخر .. ومن حسن حظها أنه كان يعيش في فراغ، ويتطلع إلى من يملؤه.

وكانت صاحبتنا أقدر النساء على ملئه..

وسرعان ما امتلأ الفراغ، وتحول الشاعر إلى قيس جديد .. إلى مجنون يسهر الليل ويدرس الفلك ويعد النجوم.

ثم بدأ دور البحث عن الرجل الثاني..

الملحن .. الذي يستطيع أن يمهد الثلث الثاني من طريق القمة.

ووجدت أمامها ثلاثة من الملحنين الشوامخ..

كان أولهم عظيمًا .. ولكنه كان مستغرقًا في حياة اللهو والليل والكأس .. وهي لا تريد أن تقرن اسمها برجل من هذا النوع، حتى لا يصبح اسمها على ألسنة رواد الليل واللهو والكأس .. وهي تعرف أن اسم الفنانة إذا لاكته ألسنة مثل هؤلاء الرواد، قام سد عال بينها وبين القمة.

وكان الثاني فنانًا ضخمًا، ولكنه كان – في كل ما اشتهر من غرامياته السابقة – مجنونًا في الغيرة، حتى لقد شرع مرة في قتل حبيبة له، كاد يدخل السجن لولا تدخل الكبراء في الأمر، تقديرًا لفنه وبقي الثالث.. وهو الآخر فنان عملاق .. ولكنه خفيف القلب .. وهذا هو المطلوب.

ووقع الرجل في الفخ بسهولة ويسر.

ويقى الرجل الثالث ..

الكاتب المرموق، الذي إذا كتب كلمة عنها، رددتها الملايين .. وإذا وقع في حبها، فإنه سيكتب عنها كل يوم .. وحتى إذا كان الموضوع بعيدًا عنها، فإنه سيتسلل من شيء إلى شيء حتى يصل إليها، فيتحدث عنها.

وألقت شباكها على ذلك الكاتب المرموق – شفاه الله – الذي تعتبر قصة حياته "ألبوما" يجمع عشرات من النساء .. وأكثرهن من بنات الفن اللاتي بدأن معه صغيرات مغمورات .. وعلى سنان قلمه أصبحن نجمات لامعات.

كانت في حياته مجموعة كبيرة منهن.. كانت هذه هي هوايته المفضلة .. التي يعتز بها كما يعتز هاوي طوابع البريد بمجموعة جميلة من طوابع البريد وكانت صاحبتنا هي "الطابع" الناقص في مجموعة صاحبنا، الكاتب المرموق.

فما كادت تتسلل إليه، حتى فرح بها، وأقبل عليها، وفي حسبانه أنها ليست إلا "طابعًا" ناقصًا .. يأخذ مكانه في "الألبوم" .. ثم لا يلبث صاحب "الألبوم" أن يبحث عن طابع جديد.

ولكن القدر أراد أن يسخر منه ومنها هذه المرة.

أتعرفون ماذا حدث؟

احتشد الثلاثة .. الشاعر والملحن والكاتب حولها.

وبدأت المغنية الصغيرة – منذ العام الأول – تزحف نحو القمة.

وزحفت خطوتين أو ثلاثًا..

وبقيت نحو سبع خطوات.

ولكن القدر وقف بها عند هذا الحد..

لقد أحبت الكاتب المرموق، فلم تستطع أن تسترسل معه في عملية الخداع المعهودة..

وأحبها هو الآخر .. ولم يستطع أن يمارس معها حكاية الطوابع .. هوايته المفضلة.

في نهاية العام .. لم يستطع أحد منهما أن يقاوم.

وتزوجا..

وأصر هو على أن تترك الغناء، وتخرج من عالم الفن.

قبلت هي دون تردد .. لأنها أحست أن هناك قمة أخرى أجمل من القمة التي تنشدها قمة أخرى .. اسمها الحب!

opeikandl.com

حبيبتي
لا تمثلي في السينما

هو ... فنان كبير

فنان . يعشق القيم الجمالية العالية، ولا يؤمن إلا بالجمال ذي السمات الواضحة، فهو يكره الرمزية والسيريالية والتجريد.

وهو رغم كراهيته للشيوعية، يحب خروشتشوف .. بدافع ارتباطهما بمذهب واحد في الفن. فخروشتشوف هو الآخر يكره الفن التجريدي، وقد جاهر بهذه الكراهية أكثر من مرة.

مرة .. قال : "لو جاء بيكاسو إلى موسكو، ما اشترينا منه لوحة واحدة، فنحن نكره الصورة التي تظهر فيها عين المرأة في مكان بطنها".

ومرة أخرى .. قال : "إن الريشة التي ترسم الفن التجريدي هي ذيل الحمار".

وقد ضحك الفنان الكبير، الذي أحدثكم عنه اليوم، ملء شدقيه يوم أن قرأ هذه العبارة، وقال لي إن لها أصلًا من الواقع .. فمنذ سنوات قريبة، أقيم في باريس معرض للمصورين التجريديين.

وأراد أحد كبار المصورين الجماليين – أي غير التجريديين – أن يسخر من المعرض وأصحابه، فجاء بحمار، وشده إلى حائط، و"لغمط" ذيله بمجموعة مختلفة من الألوان، ثم نشر عند ذيل الحمار قطعة من القماش مشدودة في إطار، وجعل يضرب الحمار، فيحرك الحمار ذيله بما فيه من ألوان على وجه قطعة القماش، حتى تكونت عليها خطوط مبهمة مضطربة الأشكال والألوان..

وذهب الرسام الكبير بهذه اللوحة، وقال للمسئولين عن المعرض إنه يشترك بها في

معرض الفن التجريدي .. وأنها من رسمه.

وفرحوا بها فرحة كبرى وانهالوا عليها وعليه بالثناء والتقدير.

والأعجب من ذلك .. أن هذه اللوحة ظفرت بالجائزة الأولى في هذا المعرض .. وهي من رسم حمار!

ورغم عبادة صاحبنا – الفنان الكبير الذي أحدثكم عنه اليوم – للجمال الواضح في أعلى درجات صفائه ونقائه، فقد كانت تذهلني، كلما زرته في بيته بمصر الجديدة، لوحة عجيبة معلقة في غرفة نومه منذ ربع قرن.

لوحة زيتية كبيرة، لم يستطع هو أن يرسمها، فكلف صديقًا له من ألمع الرسامين المعاصرين بأن يرسمها له، بعد أن أعطاه كل مواصفاتها.

واللوحة تمثل "تورتاية" فاخرة .. أنيقة الألوان، محلاة بالقشدة والكرز، فهي جديرة بأن تحرك شهية كل ناظر إليها وتسيل لعابه بعنف .. لولا أن شيئًا فوق "التورتاية" يصد العين عنها ويبعث في نفس الناظر إليها شعورًا بالقرف والغثيان!

الذباب والصراصير سارحة فوق التورتة الفاخرة!

في حياتي .. لم أر أجمل من هذه التورتة .. ولا أقبح من اللوحة التي تأملتها أكثر من مرة وتساءلت بيني وبين نفسي أيستطيع هذا الفنان الكبير أن يجمع بين عبادته للجمال في أعلى درجات صفائه ونقائه .. وبين وضع هذه اللوحة في غرفة نومه (*).

وهممت أكثر من مرة بأن أجد جوابًا عن هذا السؤال دائمًا وأشعر أن وراء هذه اللوحة كثيرًا قد لا يحب أن يبوح به.

وقد صدق ظني ..

فمع كراهية صاحبنا للرمزية وللقبح، فإن هذه اللوحة الرمز السحري الذي استطاع أن يشفي بها من أكبر محنة عبرت به في حياته.

*****

منذ بضعة أشهر ودع هذا الفنان الكبير احياة.

ومنذ أيام، كنا نجلس جلسة شاعرية هادئة ..عزيز أباظة وأحمد رامي وأنا.

وكان معنا صديق لكنه كان أحب الأصدقاء إلى قلب ذلك القلب الكبير الراحل، جعل يحدثنا عن حياته وكفاحه ونتاجه وعتبويته.

وهنا .. تذكرت اللوحة وسألت هذا الصديق وتردد .. تردد طويلًا .. وكان يلوذ بالصمت .

وحكي لنا عن السبب حيث المعاناة وتذكرت بيتًا من الشعر لأمير الشعراء أحمد شوقي، من قصيدته في رثاء المرحوم محمد تيمور.

كان محمد تيمور أديبًا وشاعرًا وقصاصًا ومسرحيًا موهوبًا.

وكان - إلى جانب هذا - كريما إلى أبعد حد.

كان يجمع حوله الأدباء البائسين، ويطعمهم ويكسوهم ويغدق عليهم، وأحيانًا يأويهم - إذ هم بلا مأوى - في قصر أبيه أحمد باشا تيمور.

ولم يكونوا يقابلون بره وإحسانه إلا بالحقد والإساءة.

كانوا يطعنونه في ظهره، ويسخرون من أدبه، ويغضون من قدره .. حتى عانى في أواخر حياته القصيرة محنة نفسية قاسية من تقولاتهم عليه ولهذا رثاه شوقي بقوله :

سعهم، فأنت جمعتهم

والشهد مائدة الذباب

الشهد مائدة للذباب ..

و"التورتة" .. عند فناننا الكبير الراحل، مائدة الذباب والصراصير أيضًا.

هذه النجمة الحسناء التي عرضت عليكم بعض سماتها .. كانت أجمل شيء في حياة فناننا الكبير الراحل.

كانت "تورتته" الفاخرة .. عاشت معه أجمل سنوات العمر، تسعده وتلهمه.

كانت يومئذ مطلقة صغيرة، في أول الشباب، على قدر كبير من الفتنة .. وعلى قدر أكبر من الجهل.

ولكن صاحبنا تعهدها .. جعلها طفلته المدللة .. وكشف عنها عن ذكاء كبير فجعلها تلميذته الأثيرة .. وما زال بها يعلمها ويثقفها حتى أصبحت من أكثر فناناتنا ثقافة وإدراكًا ووعياً وحبًا للأدب والشعر والفن.

لم تكن لها يومئذ صلة بالفن .. ولكن الأضواء استهوتها واجتذبتها .. ووجدت من يقول لها : إن لك مستقبلًا لامعًا على الشاشة.

وراحت تهمس لعاشقها الكبير بحسمها الجميل على الشاشة، وأصر على الحيلولة بينها وبين حلمها الجميل.

وطاوعته .. وخرجت من عنده على هذا الوعد.

ولكنها قبل أن تصل إلى بيتها، عرجت على الرجل الذي قال لها : إن لك مستقبلًا لامعًا على الشاشة.

ومر الأسبوع .. وهي تنتقل بين المنتج والمخرج والمصور والاستوديو.

وحينما ذهبت إلى عاشقها الكبير في نهاية الأسبوع، قالت له باكية إنها لم تستطع أن تبر بالوعد.

وكتم ثورته، وأخذها من يدها برفق، وسار بها إلى الباب، ودفعها إلى خارجه بعنف، وأغلق الباب مقسما بأغلظ الأيمان ألا يفتحه لها مرة أخرى.

وبر بقسمه .. رغم كثرة المحاولات من جانبها .. ورغم عنف صراعه مع قلبه.

لم يعد يعرف بعدها طعمًا للقمة ولا لذة للكأس، ولا معنى للنوم.

والتمس سبيلًا إلى العزاء، في التطلع إلى صورها .. صورها الكثيرة المثيرة التي يحتفظ بها عنده.

إلى أن طرأت على خاطره فكرة في لحظة تأمل .. لعله استوحاها من بيت شوقي في رثاء محمد تيمور.

الشهد مائدة الذباب إنها الآن في السوق ..

"تورتته" الجميلة معروضة في السوق .. يزحف عليها الذباب .. والصراصير أيضًا.

وكان هذا هو سر لوحة التورتة .. والذباب .. والصراصير.

باعت الحب....

... أكتب لكم من العاصمة التشيكوسلوفاكية الجميلة "براغ" أكتب لكم حكاية قلب امرأة كانت يومًا ما راقصة من أجمل راقصات براغ... أتيت إلى براغ لأمثل جمعية المؤلفين والملحنين المصرية في مؤتمر الاتحاد الدولي لجمعيات المؤلفين والملحنين الذي انعقد في المدينة وفي حفل افتتاح المؤتمر، في بيت الفنانين، جاء مقعدي إلى جوار مقعد ملحن بولندي كبير، له عدة أوبرات رائعة مثلت عدة مرات في عاصمته "وارسو" وفي جميع عواصم الكتلة الشرقية، ومنها براغ... ولهذا كان الرجل موضع حفاوة الجميع.

وقبيل افتتاح الجلسة، كان هو الذي بدأني بالحديث، وذكر لي اسمه وبعض أعماله، فتذكرته على الفور.

تذكرت أنني سمعت عنه من الكاتبة البولندية الحسناء "أنا بوكوفسكا" عند زيارتها للقاهرة في العام الماضي.

وذكرت له اسمها، وأضفت أنها من أشد المعجبات بألحانه، فأجاب بأنه هو الآخر من أشد المعجبين بقلمها... وبجمالها أيضًا وكان الحديث عن "آنابوكوفسكا" صلة بيني وبين الرجل، جعلت كلًا منا يحس بأنه صديق، وأنه يعرف الآخر منذ سنوات، لا منذ لحظات.

وسألني أين أقيم في براغ، فقلت له: في فندق انترناشيونال.. قال لي: صحيح أنه ضخم، وفخم، ولكنه ممل، والليل فيه ميت.

وأضاف أنه يقيم في فندق "يالتا" الزاخر بالحركة الحيوية، وفيه ناد ليلي أنيق، ورقص وغناء ودعاني إلى سهرة في نادي "يالتا" الليلي.

واستجبت لدعوته، وقضينا وقتًا طيبًا في حديث طيب عن الفن والموسيقى والغناء والحب والحياة، إلى أن بدأ البرنامج.

وكانت نجمة البرنامج هي الراقصة الفاتنة "ريناتا" وهي شابة حلوة في نحو الثانية والعشرين من عمرها، خضراء العينين، ذ ت جديلتين من الذهب، في حركاتها رشاقة الشياطين، وفي قسماتها طهر الملائكة.

وما كادت عيناها تقعان على صاحبي وهي ترقص، حتى تهلل وجهها بشرًا وحيته بكل خلجة من خلجات وجهها وجسدها تحية حارة.

قلت لصاحبي: يبدو أنك تعرفها جيدًا

قال: إنني أحب هذه المدينة الجميلة، وقد كنت كثير التردد عليها في أيام الشباب، منذ عشرين سنة، وكانت "ريناتا" يومئذ طفلة في المهد.

وأطرق الرجل، واستغرقته الذكريات حتى انتهت الرقصة، ودخلت "ريناتا" إلى مقصورتها فبدلت ملابسها ثم جاءت لتصافح صاحبي بحرارة وشوق.

وقدمني إليها، وجلست معنا.... وراحا يتحدثان باللغة التشيكية التي لا أحلم بأن أفهمها يومًا ما، وإن كنت قد فهمت من حديثهما – بالوايم – أنه يسألها عن أمها وأهلها وأصدقائها.

وانتهت الليلة كأجمل ما تنتهي الليالي البريئة.... وعدت إلى فندقي الصامت ذي الليل الميت، أستمتع بالأحلام وفي اليوم التالي، حننت إلى جو فندق يالتا فقررت أن أقضي السهرة هناك، وحدي.

وكان الوقت مبكرًا...

كانت الساعة الثامنة من المساء عندما وصلت إلى الفندق، ولا تزال هناك ساعة على الأقل، قبل أن يبدأ البرنامج في النادي الليلي، فآثرت أن أقضي هذه الساعة في شرفة الفندق، والتي لا يفصلها عن الشارع إلا لوح من الزجاج.

وجلست استعرض الرائحين والغادين ، إلى أن فوجئت بشبح جميل يقف إلى جانبي قائلًا بصوت يذوب رقة ونعومة: هاللو... والتفت ، فإذا هي "ريناتا"

وقلت لها: هالو ريناتا ألا تشربين معي قدحًا من القهوة؟

قالت: بكل سرور

وجلست، وسألتني عن صاحبي، فقلت لها إنه كان معي في المؤتمر حتى الساعة السابعة، ولكننا انصرفنا على غير موعد.

وراحت تحدثني عنه، وكيف عرفته منذ طفولتها لأنه كان صديقًا لأمها.

وانتقلنا من حديث إلى حديث، إلى أن لمحنا في الشارع امرأة قد لا تكون في السبعين، ولكن يد الزمن قست عليها فهدمت كيانها ورسمت على وجهها غضون السبعين.

كانت المرأة تتطلع إلى جدران فندق "يالتا" بعينيها الضيقتين في ذهول عجيب.

ورأت "ريناتا" اتجاه عيني وأنا اتطلع إلى هذه المرأة، فألقت عليها نظرة واحدة، ثم استدارت لتواجهني، قائلة: مسكينة. قلت لها: لعل لها مأساة.

قالت: نعم... إنني أسمي مأساتها تسمية عجيبة ... أسميها: ٢٠-٣٠-٤٠-٥٠

وضحكت لهذه التسمية، وسألتها عن سرها، فروت لي قصة هذه التعسة.

كانت هذه التعسة منذ ثلاثين سنة من أجمل نساء المدينة وكانت تشتغل هنا. في هذا الفندق... وفي هذا النادي الليلي كانت راقصة... ولعلها لم تكن رائعة من الطراز الأول، ولكن جمالها الصارخ رفعها إلى الطراز الأول.

ويومئذ... كانت هناك رأسمالية وإقطاع، وبذخ وإسراف، وحياة ليل صاخبة يسيل فيها الذهب كما تسيل الشمبانيا كانت يومئذ في مثل سني... في العشرين أو أكثر قليلًا... وكانت قلوب الأغنياء من الثراة ورجال المال والأعمال تتناثر تحت أقدامها فوق طريق ممهد بالذهب والجواهر.

هكذا عاشت هذه السيدة في المدينة، كأنها ملكة غير متوجة ومرت السنوات وهي في سكرة الشباب، حتى انتهت مرحلة العشرين، وجاءت مرحلة الثلاثين.

وأحبها رجل من ثراة المدينة، وعرض عليها الزواج على أن تهجر الفن، لأنه شديد الغيرة عليها وترددت... ترددت كثيرًا .. لأنها تحب حياة الليل، ومشاغبة القلوب،

بإذلال الرجال، ولكنهما تزوجا في النهاية.

ولم تكن حياتها هادئة... ولكنه احتملها، ودفع ثمن هذا الاحتمال من أعصابه، لا من أجل حبها، فإن الحب قد مات في قلبه من فرط خيانتها له، ولكنه احتملها من أجل الطفلة البريئة الحلوة التي وهبها لهما الله ولكن.. للصبر حدود.

وقد نفد صبر الرجل يومًا ما، فطلقها، وكانت مرحلة الثلاثين قد انتهت، وجاءت مرحلة الأربعين. وبدأ جمالها يذبل، من أثر الليل والكأس والحياة الصاخبة، وبدأت الخطوط السود ترتسم حول عينيها، ويبدأ موكب المعجبين ينفض عنها، فلم تجد أمامها وسيلة إلا أن تشتري الحب بالمال، كما يشتريه عجائز الرجال.

وأنفقت.... أنفقت بسخاء على شبان لا رأسمال لهم إلا البدلة الأنيقة والشعر اللامع والجسد القوي.

ومرت سنة وراء سنة.... وذاب ماعندها من مال سائل ومجمد وحلي ومجوهرات، كما ذاب الشباب.

وبدأت تحس مرارة الكفاف.... وانتهت المرحلة، وجاءت مرحلة الخمسين.

جاءت في فترة تغيرت فيها معالم الحياة في المدينة فقد ذهب عهد الرأسمالية والإقطاع، وأصبحت اللقمة حقًا للكادحين وحدهم.

وذهبت تبحث عن زوجها القديم، لعله يغفر لها ويهبها لقمة العيش ... فوجدته هناك... في مكان بعيد عند قلعة "كارلشتاين".

ولم تجد عنده متسعًا من المغفرة، لأنه كان حاقدًا عليها، ولا متسعًا من المال، لأن الثورة الاشتراكية جردته من كل رأسماله الذي جاء عن طريق الحرام، فاضطر إلى أن يكدح لأول مرة في حياته، وأصبح عاملًا شريفًا في مناجم الحديد.

وعادت إلى براغ.... عادت لتهيم في شوارعها، ولا يفوتها أن تمر كل ليلة من هنا... من أمام فندق "يالتا" لتستنشق عبير عصرها الذهبي الذاهب، وتتغذى بالذكريات.

روت لي ريناتا القصة، ثم سكتت لحظة، وخيل لي أنها انتهت من حكايتها.

ونظرت إلى ساعتها، وقالت لي:- لقد جاء موعد البرنامج. ألا تأتي الليلة؟

قلت لها: لا أظن ... لأنني ذاهب لكتابة هذه القصة. إنني كادح كما تعلمين... ولقمة العيش عندنا للكادحين وحدهم... وأنا مطالب بقصة عن الفن والحب... أتأذنين لي بكتابة هذه القصة؟

وابتسمت ريناتا ابتسامة جميلة وقالت: ولم لا ؟ ولكني نسيت أن أذكر لك نهايتها. نسيت أن أذكر لك أن هذه المسكينة، هي أمي.

obeikandl.com

قلبي عليه.. وجسمي معه

قد يكون في حياة المرأة رجل واحد... وقد يكون في حياتها عدة رجال...

وقد يعبر بحياتها عشرات من الرجال، فتنساهم واحدًا بعد الآخر، ولكن يبقى بعد ذلك رجل واحد لا يبرح ذاكرتها أبدًا، مهما طال بها العمر، هو الرجل الأول في حياتها!.

هذا الرجل... تظل المرأة تحتفظ بشبحه في مخيلتها مهما تباعد به الأمد.

والفنانة التي أحدثكم عنها اليوم.. هي أنثى قبل أن تكون فنانة.

أنثى.. في حياتها عدة رجال ولكن عذابها الأكبر، أنها تريد أن تنسى الرجل الأول في حياتها، ولا تستطيع!.

الشذوذ موجود في كل جو... ولكنه أكثر ما يكون وجودًا في جو الفن.

وهذه الفنانة قد نشأت في بيت كل من فيه من أهل الفن.

حتى أبيها... ذلك الشيخ الطاعن في السن... الذي تراه فيغرك منه مظهر الملائكة.. كان يومًا ما فنانًا. ولكنه كان الشيطان نفسه إذا نزعت عنه ثوبه الكاذب وعندما ماتت زوجته... أم الأنثى التي أحدثكم عنها.. أسرف في الشراب حتى الثمالة.. وتلفت حوله ذات ليلة في أركان البيت وهو ثمل... فلم يجد أنثى في البيت غير هذه الصغيرة ..

فكان الرجل الأول في حياتها!.

ذلك فصل من حياتها، انتهى منذ سنوات طويلة.

ولكنه كا فصلًا قمينا بأن يدمر نفسيتها، ويخرب شخصيتها، ويؤثر في إنسانيتها، ويعلمها الحقد والكراهية.

ولم تستطع بعد هذا بقاء في هذا البيت الشرير الذي تفتح عينيها فيه كل صباح على وجه الشيطان، فقررت أن تخرج إلى أي طريق.

وكان أقرب طريق إليها، هو طريقها إلى بيت أختها... التي هربت من البيت الشرير من قبل ... لتتجنب نفس المأساة.

هذه الأخت... كانت قد شقت طريقها في عالم الفن، فأصبحت نجمة لامعة يسيل الذهب تحت قدميها وتتوج الأضواء هامتها وتتناثر على طريقها قلوب المعجبين وفتحت لها أختها باب البيت، وأوتها إيواء كريمًا ولكن هذا الإيواء لم يكن ليسعدها لأن الحقد والكراهية اللذين يعيشان في أعماقها، كانا أعمق من أن تحل عقدتها لقمة العيش.

مهما كان الحال في بيت أبيها، فإنها كانت السيدة الأولى في البيت.

أما هنا، فالسيدة الأولى هي أختها وهي هنا تعيش عالة على أختها تأكل من فضلها، وتلبس بقايا أثوابها، وتكلف رعاية أعمال البيت، فهي نصف خادمة ونصف سيدة.

وهؤلاء الرجال الذين يفدون إلى البيت كل ليلة، يحملون الهدايا والعقود والنقود، ويأكلون ويشربون ويضحكون ويصخبون... إنهم يمرون بها وهي تفتح لهم الباب، فلا يأبهون لها ولا يحسون وجودها... ولم كل هذا ؟

إنها جميلة!

أحيانًا تقف أمام المرآة، فتجد في نفسها كل المادة الخام لامرأة جميلة.. لا تنقصها إلا الثياب الأنيقة والحلى الثمينة التي تلبسها أختها... والماكياج الذي تزين به وجهها فيحولها من امرأة عادية، إلى نجمة سينمائية.

وذات يوم... وكانت أختها خارج البيت خطرت لها فكرة.... ودخلت إلى غرفة أختها، واقتحمت خزانة ملابسها، ولبست أفخر ما فيها ثم مدت يدها إلى درج الحلى والمجوهرات، فاختارت أبدعها ولبسته. ثم وقفت أمام المرآة، ووضعت البودرة والأحمر وطلاء العينين وطلت أناملها بالمانيكير .. وراحت تتأمل نفسها في المرآة .. فبهرتها الصورة... وكأنها ترى حقيقتها لأول مرة.

وهتفت لشخصها في المرآة:

والله أجمل من أختي .. ألف مرة

وفجأة جلجل جرس الباب وأحست بشيء من الخوف أن تكون أختها قد عادت فجأة... وخافت أن تفاجئها متلبسة بالجريمة. نظرت من العين السحرية المثبتة بالباب، فلمحت الطارق... إنه النجم الشاب الذي يتردد على البيت كل ليلة، وترشحه الشائعات الصحفية للزواج بأختها وتتهامس دوائر الفن بأن بينه وبين أختها حكاية حب لا تزال في أول الطريق.

واستردت المسكينة جأشها، وفتحت الباب بشجاعة واستقبلت النجم الشاب بابتسامة حلوة.

وما كادت عيناه تقعان عليها، حتى صاح بها:- أنت؟!

قالت بهدوء:- نعم أنا

قال:- والله.. أجمل من أختك ألف مرة.

نفس الكلمات التي هتفت بها لنفسها في المرآة منذ لحظات معدودة!

فوقف النجم الشاب يتأملها مبهورا ثم سألها:

- هل أستطيع أن أدخل؟

قالت له في خوف:

- لا ... إن أختي غير موجودة لا أستطيع.

وجمد في مكانه لحظة، ثم استدار وهو يودعها بنظرة والهة وجاء المساء...

وتوافد الأصدقاء على البيت على عادتهم كل ليلة وجاء النجم الشاب، فأسرعت إليه المسكينة عند الباب، تتوسل إليه ألا يروي لأختها أنها لبست لبسها وتزينت بزينتها في الصباح خشية أن تطردها من البيت ووعدها بالصمت ولكنه لم يصمت... بل ظل يتأملها أكثر من مرة طول الليل، ويختلق العذر بعد العذر للخروج من غرفة الجلوس، ليراها حيث هي في ركن منعزل من البيت، ويلقي إليها في كل مرة بنظرة حادبة أو كلمة

حانية.

وفي الليلة التالية جاء ومعه صاحب له من المخرجين المعروفين وفي الليلة التي تليها، ألقى قنبلة.. وفاتح أختها في الأمر قال لها.

- هل توافقين على اشتغال أختك بالسينما؟

وذهلت أختها، وصاحت:- أختي تشتغل بالسينما ؟

قال لها:

- وأي عيب في هذا؟ ... ألست أنت الأخرى نجمة سينمائية ؟

قالت بكلمات متلعثمة:- أجل .. ولكن ... هل تصلح...

قال بثقة: كل الصلاحية وأخشى أن أقول...

أراد أن يقول إنه يخشى أن يقول إن أختها أكثر صلاحية منها للسينما.. ولكن الكلمات ماتت على شفتيه قبل أن تنفجر وتفجر البيت وأطرقت الأخت الفنانة وقالت:

- على أية حال، أنا لا أمانع... وفي الحال... أبرز من جيبه العقد الذي كان معدًا، لا ينقصه شيء غير التوقيع.

وفي ابتسامة من ابتسامات القدر، وجدت الصغيرة الضائعة في يدها ألف جنيه!.

وفي الاستديو.. في ركن هادئ منه.. بدأت الهمسات بين النجم الشاب ونجمته الجديدة.

وقالت له:- ولكنك تحب أختي... وستتزوجها.. هكذا تقول شائعات الصحف؟

قال مستنكرًا:- أنا ؟ أنا لم أحبها أبدًا. كل الصلة بيننا هي الفن... وإذا فكرت في الزواج يومًا ما ، فلن أفكر في واحدة.. إلا أنت.

وصاحت صيحة سمعها كل من في البلاتوه:- أنا ؟

وانتهى حديثهما عند هذا الحد على أثر صيحة المخرج ببدء اللقطة.

ونجح الفيلم .. والفيلم الثاني .. والفيلم الثالث...

وقصة الحب مستمرة بين النجم الشاب ونحمته الجديدة.

إلى أن كان ذلك اليوم الذي اتضح فيه أنه حب من جانب واحد عندما سمع النجم الشاب أن صاحبته تذهب إلى بيت معين، في ساعة معينة من كل ليلة وأرسل عيونه تتبعها.

واتضحت الحقيقة المذهلة... أنها تذوب في هوى رجل آخر شاب متواضع.. يعمل وراء الأضواء في عالم السينما كمساعد إنتاج.. ويسكن في غرفة ضيقة فوق سطح عمارة سكنية وذهب النجم الشاب يعاتب صاحبته، فقالت له:

حسبي ما أعطيك من جسدي... إنني لا أعطيك إياه عن حب بل اعتراف بالجميل

obeikandl.com

هزيمة امرأة...!

رأيتها على شاطئ (المعمورة) هذا الأسبوع.. تجلس هادئة أمام كابينتها، والوقار يلف وجهها الذي ارتسمت عليه خطوط السنين، بهالة من الشعر الأبيض الفضي المضموم. ومن حولها. التف أحفادها الصغار يداعبونها ويحاولون أن ينتزعوا من يديها مجلة (الكواكب) لعلها تفرغ لمداعبتهم، وهي تنهرهم برفق، وتحاول أن تفرغ بكل حواسها لقراءة هذا الباب بالذات: "الفن والحب" وجلست أرقبها من بعيد، إلى أن انتهت من القراءة، وغامت على عينيها الذكريات... الذكريات البعيدة.. التي تعود بها إلى ماض عمره أكثر من عشرين سنة.. يوم لم تكن زوجة.. يوم أن كانت نجمة متألقة على أعظم مسارح العاصمة.. إلى أن حدث الحدث الذي بدل حياتها، وحملها على الكفران بالفن، وبمن يعيشون في دنياه.

*****

كانت أبرز سمات ذلك الممثل الكبير، أنه يحب التجديد في كل شيء.. حتي في مأكله ومشربه وملبسه. كان يأخذ دوره فيجيد حفظه عن ظهر قلب، ويؤديه أداء حسنا غير أنه كان يعود إلى بيته بعد نزول الستارة في كل ليلة، فيقدح زناد فكره باحثا عن شيء جديد يضيفه إلى الدور.. ككلمة رنانة.. أو حركة مبتكرة.. أو انفعال مؤثر وكانت في حياته امرأة.. هي تلك السيدة الوقور التي رأيتها على الشاطئ بين أحفادها في الأسبوع الماضي.. كانت في ذلك العهد في أول الشباب، وفي أجمل رونقه وفتونه وكان صاحبنا يحبها حب عبادة.. غير أنه – كما أسلفت القول – كان يحب التجديد.. حتي في مجال العاطفة.. فلم يكن يجد بأسا على تصرفه إذا هو تسلل من ورائها ذات ليلة، بأية حجة، ليختلس لحظة حب أو متعة مع ممثلة ناشئة، أو راقصة من الدرجة الثانية، أو متفرجة معجبة به.. دون أن تؤثر هذه الخلسة على حبه الكبير.. أما هي، فلم تكن تتصور شيئا من

هذا أبدا... كانت تتصور أن الحب الذي يربطها به، لون من العبادة التي تصل إلى حد التصوف والزهد في كل متعة من متع الحياة: إلا الحب الذي يعيشان فيه، ويتبتلان له.

*****

وذات موسم.. انضمت إلى الفرقة ممثلة جديدة.. كانت من قبل راقصة.. ثم ظهرت في دور صغير على الشاشة.. ولكنها استطاعت رغم ضآلة الدور أن تلمع، وأن تجتذب إعجاب الجماهير، وتسرق الأبصار من بطلة الفيلم نفسها.. إلى حد أن الناس كانت تخرج من الفيلم وعلي أفواهها الكلمات الضئيلة التي رددتها الممثلة ذات الدور الضئيل.. التحقت الممثلة الصغيرة بالفرقة... وأتيحت لها فرصة القيام بالأدوار الثانية، التالية لأدوار صاحبتنا الممثلة اللامعة ومنذ الليلة الأولي، أحس مدير المسرح والمخرج والممثلون.. والجمهور أيضا.. بأن هناك عدم توازن... وأن الحق يقضي بأن تكون الممثلة الجديدة هي صاحبة الأدوار الأولي، وأن تكون الممثلة القديمة هي صاحبة الأدوار الثانية ودبت الغيرة في قلب الممثلة الكبيرة ولكن عزاءها الأكبر كان في الحب.. خطر ببالها أكثر من مرة أن تستقيل من الفرقة.. وأن تعتزل عالم الفن كله ولكن خاطرا واحدا ردها عن هذا التفكير، هو أنها لا تستطيع أن تبتعد عن الجو الذي يعيش فيه حبها الكبير... وكان عزاؤها أن النجاح في الحب أكبر في حياتها من النجاح في أي مجال آخر وبدأت الصغيرة تثور، وتطالب بالأدوار الأولي.. أو الاستقالة من الفرقة وذات ليلة وصل شعورها بالثورة على هذا الوضع ساعة الصفر، فقررت أن تحسم الموقف.. إن سدا واحدا منيعا هو الذي يحول بينها وبين الأدوار الأولي.. هو ذلك الممثل الكبير الذي يحب بطلة الفرقة.. ومن أجل حبه لها يخصها بالأدوار الأولي... إذن لا بد أن تحطم هذا السد! واقتحمت مقصورته في المسرح قبيل أن ترتفع الستارة، وأغلقت الباب وراءها، وبدأت تحدثه بلهجة لم يسمعها من شفتي امرأة من قبل، ووضع الممثل الكبير أعصابه في ثلاجة، ورسم على شفتيه ابتسامة هدوء وتماسك، وراح يتملاها وهي ترغي وتزبد، وخداها يشتعلان غضبا فيزدادان حمرة على حمرة، وفتنة على فتنة، وهو يزداد بها افتتانا على افتتان وجاءت اللحظة التي أحس فيها الممثل الكبير بأن الكلمات توشك أن تذوب على شفتيها لتتفجر بدلها

الدموع.. فنهض من مقعده وئيدا، وأمسك بها من كتفيها برفق حتي لا تتهاوي وتسقط على أرض المقصورة ولكنها لم تسقط على أرض المقصورة.. بل سقطت بين ذراعيه.. واستغرقا في قبلة طويلة لا يعرف أحد منهما مداها، ولم يفيقا منها إلا على هذه الدقات الثلاث المؤذنة بموعد ارتفاع الستارة.

وارتفعت الستارة.. وبدأت المسرحية.. ومر المشهد وراء المشهد، والجميع في ذهول مما أصاب النجمة الصغيرة التي رشحوها للمجد عندما تلعثمت في كلماتها وتعثرت في خطواتها أكثرمن مرة... وأكثر من مرة نسيت كلمات دورها، وهرعت إلى الملقن تتوسل أن يسعفها بالكلمات، بعيون مستجدية وما إن نزلت الستارة بعد الفصل الأخير، إلا وكان أهل المجتمع يرثون لها وهي مستلقية على شزلونج مقصورتها في نصف إغماءة، غارقة في الدموع... وجميع أفراد الفرقة يواسونها ويشجعونها ويزعمون لها أن هذا شيء مألوف في حياة كل فنان.. وأن بين نوبات البريق نوبة انطفاء لا تلبث أن تزول ورفعت الصغيرة رأسها.. وقلبت عينيها فيمن حولها، فوجدت جميع زملائها محيطين بها... إلا اثنين: الممثل الكبير والممثلة الأولي... هما وحدهما اللذان لم يفكرا في الوقوف إلى جانبها في هذه المحنة هما وحدهما– كما سري إلى خيالها وهلة – اللذان تركاها حطاما ليذهبا إلى عشهما، وينعما بالحب.

وعادت الممثلة الكبيرة إلى بيتها في تلك الليلة وهي أسعد امرأة في الوجود وراق لها أن تشرب نخب نفسها، فوضعت زجاجة الويسكي أمامها، وشربت مرة ثالثة... في انتظار قدوم حبيبها ليشاركها سعادتها ويطبع على شفتيها قبلة النصر ولكن الزجاجة انتهت قبل أن يأتي حبيبها... ومال رأسها في إغفاءة طويلة، أفاقت منها على خاطر مثير

عادت الممثلة الصغيرة إلى بيتها في تلك الليلة لتستسلم لأشجانها ولكنها لم تكد تخلع القطعة الأولي من ملابسها، حتي سمعت طارقا بالباب وفتحت الباب، لتجد نفسها أمام الممثل الكبير يقول لها:

– ألم تكوني تتوقعين هذه الزيارة؟

قالت له:

- آخر من كنت أتوقع زيارته.. وليس يدري أحد غيرهما ماذا دار بينهما تلك الليلة من حديث، أو أكثر من حديث ولكن الجميع يدرون أن هدأة الفجر تبددت على صوت الممثلة الكبيرة تفاجئهما في هذا المكان، وخرجت الممثلة الكبيرة من ذلك الموقف العارم مطرقة مهزومة..وعادت إلى بيتها... ولم يرها المسرح منذ ذلك الفجر وأنا شخصيا لم أرها منذ تلك الليلة.. إلى أن رأيتها هذا الأسبوع على شاطئ المعمورة، تقرأ حكاية من حكايات الحب والفن.

obeikandl.com

ماذا أصاب البلبل الحيران؟

للعقاد – رحمه الله – قصيدة لطيفة عنوانها ((حديقة حيوانات آدمية)) ... يصف بها أصحابه الأقربين من الشعراء والأدباء والفنانين ، كعبد الرحمن صدقي وصلاح طاهر ومحمد حسن الشجاعي وطاهر الجبلاوي وغيرهم ، ويشبه كلا منهم بنوع من الحيوان ، فهذا قرد لحبه للتقليد ، وذاك نسناس لسرعة حركته ، والثالث بشروش لطول ساقيه ، والرابع أرنب لقلة شجاعته ... إلخ.

وكان العقاد يرى – وهذا صحيح – أن في كل إنسان صفة غالبة من صفات حيوان معين .. ففي الناس من هو أسد بقوته .. أو فيل بضخامته ... أو كلب بوفائه ... أو ثعلب بخبثه ... إلخ.

وفي مرسى مطروح حيوان برمائي صغير ، أسود اللون ، اسمه الحنجل ، يخربش ولا يعض ، ويحلو له أن يتسلق سيقان المصطافات وهن نائمات ..

وهو خفيف الحركة ، يتنقل من ساقي مصطافة إلى ساقي مصطافة أخرى بمنتهى الخفة ، وبغير معاناة ، إلى أن يجد المصطافة الشجاعة التي تصرعه ... بالشبشب !

وفي دنيا الفن حيوانات كثيرة كحيوانات العقاد ... منها مخرج سينمائي ... أسمر اللون ... كان يحلو لي أن أسميه دائما بالحنجل ، لأنه يشترك مع الحنجل في كثير من صفاته ، ولا سيما التسلق على سيقان الفنانات ، وحب الخربشة ، وكثرة التنقل.. في حياة هذا المخرج عشرات من الفنانات: هذه ممثلة ... وتلك مغنية ... والثالثة راقصة ... والرابعة عاملة مونتاج ... والخامسة كومبارس ... إلخ.

المهم ... أنه لم يعرف الحب – إذا جاز أن نسمي العاطفة المتنقلة حبا – إلا في وسط الفن، وكنت كلما لقيته ، راح يحدثني عن آخر غرامياته ، ويسهب في وصف حبيبته الجديدة إسهابًا يرفعها إلى مستوى الملائكة واسأله عنها: من تكون ؟

فيغضي ... ثم يقول هامسا: واحدة من الوسط يعني من الوسط الفني ....

وأسأله عن مدى حبه لها ، فيؤكد لي أنها ستكون حبيبة العمر ... حبيبته إلى الأبد ولا ألبث – بعد أسبوعين أو ثلاثة ... أو شهر على الأكثر – أن أسمع أن الحنجل قد نسى غرامه القديم وتعلق بغرام جديد...

وأن الشي الذي يسميه "إلي الأبد"، لا يزيد عنده على شهر واحد !

وذات يوم ، قرأت في الصحف أن حادث سيارة قد وقع للحنجل حيث كان يسير بسيارته مسرعا في مصر الجديدة ، فاصطدم بسيارة أخرى ، وأصيب بعدة رضوض نقل على أثرها إلى المستشفى، وذهبت لأطمئن عليه ، فوجدت عنده مجموعة من الوجوه المعروفة في الوسط ... أي من حديقة الحيوانات الآدمية ... ولمحت في ركن من الغرفة وجهًا غير مألوف ... لم أره في الوسط أبدا.

قلت لنفسي: لعله وجه جديد.

وحاولت أن أجد له مكانًا في حديقة الحيوانات الآدمية ، فلم أجد ما هو أكثر شبها به من البلبل

وأطلت النظر إلى صاحبة هذا الوجه الهادئ الجميل

ولمحني الحنجل ... فاستدناني إليه ، وهمس لي:- هل تعجبك ؟

قلت:- لا شك إنها جميلة ... جميلة جدا ... من تكون هذه السيدة ؟

قال لي:- إنها ليست من الوسط

قلت:

- وماذا جاء بها إلى هنا ؟

قال:- إنها هي التي جاءت بي إلى هذا المكان ... صاحبة السيارة التي صدمت سيارتي وأصابتني بهذه الرضوض.

ونظر إليها ... نظرة ليس فيها شيء من الحقد على ما أصابه على يديها ... نظرة كلها حب وولع وجنون.

وخرجت من عنده يومئذ وأنا أشعر أن الحنجل قد وجد السيدة الشجاعة التي تصرعه بالشبشب ، بعد أن طال تسلقه على سيقان بنات الوسط الفني.

وخرج الحنجل من المستشفى ... ومرت الأيام ، وأنا أتتبع أنباء الحنجل والبلبل ، فإذا قصة الحب مستمرة على غير العادة ... شهرًا ... وشهرين ... وثلاثة ... وسنة كاملة ... وقصة الحب تدنو من نهايتها السعيدة: الزواج.

كان آخر ما يخطر ببال أحد في الوسط الفني ، أن يقع الحنجل في حب يحمله على الزواج... أما أنا فإنني أؤمن دائما بأن الزواج – كالموت – مصير كل حي ، ولكنه لا يأتي إلا حينما يلتقي الرجل بامرأة من نوع آخر غير النوع الذي ألفه طول شبابه.

والحنجل قد ألف نوعا معينا من النساء ... هن بنات الوسط الفني ... بكل ما فيهن من خصائص لا شك أنها تختلف اختلافًا بينا عن بقية النساء ... فهن متحررات ... مرحات ... صاخبات ... عصبيات ... مسرفات في التبرج ... كثيرات التكاليف .. أما هذه ... أعني ((البلبل)) ... فكان كل شيء فيها عكس ما فيهن: كانت خجولة ... في عينيها حزن جميل، هادئة هدوء الملائكة.. موهوبة من السماء التي منحتها ألوانا تغنيها عن كل ماكياج ... أنيقة في بساطة ... يخيل لك أنها لا تأكل إلا ألسنة البلابل وقلوب العصافير !

ومر العام الأول عليهما في هدوء وفي العام الثاني ... بدأ البلبل يخرج من عشه ويختلط بالوسط .. ويسهر الليلة عند فلانة ... والليلة الثانية في الأوبرج .... والليلة الثالثة في صحاري سيتي ... والليلة الرابعة في ستوديو الهرم ... وبدأت أشفق على البلبل الذي بدأ يتبرج .. ويضحك ضحكة عالية ... ويعبث بجناحيه بين الحين والحين.

وجاءت السنة الثالثة ...

وسافرت إلى أمريكا ، حيث بقيت هناك ثلاثة أشهر أحاضر في إحدى جامعاتها عن الأدب العربي، وعن الصحافة في الشرق الأوسط، وكنت أذهب إلى السفارة المصرية الفينة بعد الفينة لأزور الأصدقاء، وأرى الوجوه المصرية، وأحتسي فنجالًا من القهوة التركية، وأطالع الصحف القادمة من القاهرة.

وذات يوم ... فتحت صفحة الفن بجريدة الأخبار، ففوجئت بصورة البلبل منشورة على عمودين.. وقرأت الخبر.. فإذا هو يقول إنها اندمجت في الوسط الفني، ورشحت لبطولة أحد الأفلام.

وقلت لنفسي: لقد انتهت القصة...

وعندما عدت إلى القاهرة، وسألت عن الحنجل والبلبل، قيل لي إن القصة انتهت بالفعل...انتهت بالطلاق

لقد أحبها هذا الحب الكبير لأنها لم تكن من الوسط...

كان كل ما فيها من خصائص، لا يمت إلى الوسط الفني بصلة...

أما الآن... فقد اندمجت في الوسط، واكتسبت كل خصائصه، ففقدت كل ما كان يشد إليها قلب الحنجل بهذا العنف...وعاد الحنجل إلى حياته الأولى، يتحنجل من جديد...

ومضي البلبل هو الآخر... يتعلم الحنجلة...ويتسلق سيقان الممثلين والمخرجين والمنتجين!

ذكريات إذاعية
تأشيرة مستشار القصر

سألتني إحدى المذيعات منذ أيام: (أين كنت ليلة قيام ثورة يوليو ١٩٥٢).. ورحت أسترجع الذكريات.. وأهاج سؤالها أسئلة أخري في أعماقي.. أين كنا قبل الثورة؟ وأين أصبحنا بعد الثورة ؟....

كنت آنذاك مراقبا للبرامج الثقافية بالإذاعة.. وجاء صيف سنة ١٩٥٢، فقررت أن أذهب إلى أوروبا وأتجول في دور إذاعاتها، على حسابي بعد أن أحسست أن الفن الإذاعي قد أخذ يتجمد، ولابد من شيء من التجديد يحطم الثلج حول فننا الإذاعي.

وذهبت إلى روما وباريس وجنيف وبروكسل ولندن، ودخلت دور إذاعاتها وأحسست أن هناك سرا واحدا هو المسئول عن تجميد الفن الإذاعي في القاهرة، هو فقدان الحرية.. حرية العمل، وحرية التصرف، وحرية التفكير، وحرية الابتكار... كانت شركة ماركوني الإنجليزية هي التي تدير الإذاعة المصرية في أول الأمر، بموجب عقد مع الحكومة المصرية.. وكانت الإذاعة تدار لحساب الإنجليز لا لحساب المصريين وكان مدير الإذاعة إنجليزيا، وكذلك سكرتيرها العام، وكبير مهندسيها وأكثر المهندسين وكان مدير المستخدمين والخزانة يهوديا صهيونيا، اسمه انجيل. وكانت جميع مراقبات الإذاعة مطعمة بعناصر يهودية صهيونية.

وكانت أكثر الأحاديث- ولا سيما في فترة الحرب- دعاية للإنجليز وقضايا الحلفاء.. وكان أكثر هذه الأحاديث يرد من السفارة البريطانية ويذاع بأمر السفير البريطاني!

وحتي تلك الأغاني المائعة والمخنثة التي كانت تذاع ليل نهار.. لاشك أنها كانت لحساب الإنجليز.. عن قصد أو عن غير قصد.. لأنها كانت تشيع الانحلال والتراخي في

نفوس المواطنين وكان محظورا علينا أن نحتفل في الإذاعة بالمناسبات الوطنية، لأن الاحتفال بها اشتغال بالسياسة، وهذا محظور وفقًا للعقد المبرم بين الحكومة المصرية وشركة ماركوني.

*****

وذات يوم، جاءت مناسبة وطنية كبيرة واجتمعنا نحن شباب الإذاعة- أجل.. كنا شبابا في ذلك العهد- محمد فتحي وعلي خليل وعبد الحميد يونس ومحمد محمود شعبان وحافظ عبد الوهاب وعبد الوهاب يوسف وأنا..وقررنا أن نعد برنامجا وطنيا يتفق مع المناسبة الوطنية الكبيرة ووضعنا البرنامج، وقدمناه لمدير الإذاعة الإنجليزي- المستر ريتشاردز. وكان مشهورًا بالحماقة فما كاد يطلع عليه، حتى أرغي وأزبد، وثار وفار، وانتفض من وراء مكتبه وهو يقول لنا:- ما هذا؟!

قلنا له:- هذا برنامج عيد من أعيادنا الوطنية

قال محتدا وهو يضرب بيده على مكتبه:

- هذا البرنامج لن ينفذ.. ولو اقتضاني الأمر أن أعمل وحدي، بدونكم جميعا

وسخرنا منه، وذهبنا إلى وزير الشئون الإجتماعية، بوصفه الوزير المشرف على الإذاعة يومئذ، وروينا له ما حدث.. وكان - رحمه الله رجلا شجاعا، فأمسك بسماعة التليفون، وحاول أن يتفاهم مع المستر ريتشاردز بالحسني، ولكن الحماقة غلبت على الرجل، فأغلظ في رده على الوزير.. الذي كال له الصاع صاعين.. ولعن سنسفيل أجداده... ونزل لفوره فقابل رئيس الوزراء وروي له ما حدث. واجتمع مجلس الوزراء في اليوم نفسه، وقرر الاستيلاء على الإذاعة واسترداد إدارتها من شركة ماركوني، وتولية أمرها للمصريين وحدهم.

وبين يوم وليلة.. وجد المستر ريتشاردز نفسه في عرض الطريق! وإذا كنتم تذكرون ما صنع الاستعمار يوم إعلان تأميم قناة السويس، من انسحاب المرشدين الأجانب دفعة واحدة لتعطيل الملاحة في القناة، فإن الاستعمار قد صنع نفس الشيء من قبل، يوم طرد المستر ريتشاردز من الإذاعة المصرية.. فقد خرج وقرر أن يسحب معه

جميع المهندسين الإنجليز من الإذاعة.. ليتعطل الإرسال.

وفي الحال.. جندت الإذاعة نفرا من كبار مهندسي مصلحة التليفونات، على رأسهم المرحوم إبراهيم حامد صالح، وصلاح عامر..

وجاء المهندسون المصريون، وتسلموا العمل، وأداروه على أحسن وجه، ولم يتعطل الإرسال الإذاعي لحظة واحدة!

إلي هنا.. أحسسنا أننا قد استرددنا حرية العمل وحرية التصرف، وحرية التفكير، وحرية الابتكار

ولكن الأيام أثبتت أننا كنا واهمين.. فقد بعث إلينا القصر بمستشار للإذاعة، ليكون عين القصر على كل كلمة تقال في الميكروفون وعشرات من الأحاديث ألغيت.. وعشرات من البرامج شوهت..

وعشرات.. ومئات.. وآلاف من الأفكار المبتكرة وئدت في المهد، لأن مستشار القصر لشئون الإذاعة لم يوافق عليها.. لأنها تمس الملك ذاته.. أو تمس العرش... أو تمس النظام الملكي من قريب أو من بعيد... أو توقظ الوعي.. أو تحرض على الثورة.

ولا يزال عندي نص قراءة شعرية أحببت أن أقدمها في يوم من الأيام بمناسبة ذكري الشاعر التونسي الراحل أبو القاسم الشابي وعلي هذا النص تأشيرة مستشار القصر لشئون الإذاعة تقول: (لا يذاع)!

أتدرون لماذا؟

لأنه احتوي قصيدة يخاطب بها الشابي ضمائر الشعب.. يلومها على صمتها واستكانتها للقوة، ويدعوها إلى الثورة.

منع مستشار القصر إذاعة هذه القصيدة.. وعشرات مثلها من القصائد والأحاديث والبرامج، لأنها تمس الملك أو الملكية، ولم ينصب الحظر على ما يمس الملك وحده.. بل كان هناك كل يوم محظور جديد.. فهذه تغضب الإنجليز. وهذه تغضب الفرنسيين.. وهذه تغضب الهنود.. وهذه تغضب السعوديين... إلخ.. بل لقد بلغ الأمر

في بعض الأحيان إلى منع إذاعة أغنية معينة، لأن رئيس الوزراء لا يحب هذه الأغنية، و أحسسنا جميعًا أننا لم نصنع شيئًا كبيرًا حينما جاهدنا لتمصير الإذاعة.. وأن الإذاعة لا تزال في أيدي القوي الاستعمارية والرجعية إذن... لابد من حدث كبير، حدث لا نعرف صورته ولا لونه، يحقق ما نصبو إليه من حرية في العمل والتصرف والتفكير والابتكار

وجاء صيف سنة ١٩٥٢ وذهبت إلى أوروبا.. وفي لندن دعاني الشاعر المعروف الدكتور عبد العزيز عتيق- وكان يومئذ مستشارنا الثقافي في لندن- إلى الغداء

وكانت معنا على الغداء سيدة أمريكية جميلة مثقفة، قدمها لي صاحبي، وقال لي:

- لقد أحببت أن أقدمها إليك، لأنها تقوم برحلة حول العالم، لتدرس الفولكلور، وتؤلف كتابا عنه. وهي قادمة إلى مصر قريبا، فأرجو أن تحتفي بها، وتمهد لها أسباب دراستها حتي يكون للفنون الشعبية مكان في كتابها العالمي.

وبدأت السيدة تحدثني ونحن نستعد لتناول الغداء، فكان أول سؤال لها:

- كيف حال كنج كونج!

وفهمت قصدها، ولكني تغابيت وعدت أسألها:

- ماذا تعنين يا سيدتي بكلمة كنج كونج!

قالت:

- أعني كنج فاروق (الملك فاروق).. ألا يزال يداعب النساء بلحيته في الأماكن العامة، ويمسك بالقطط من ذيولها ويدوخها في الهواء حتى تسقط ميتة؟

هكذا كانت صورتنا- نحن المصريين- في عيون العالم بسبب حكام ذلك العهد.

وسافرت بعدها إلى باريس، ثم إلى روما، وفي روما سمعت باعة الصحف يهرولون في الشوارع. ويصيحون بأعلي أصواتهم:

- سوبلمنتو.. سوبلمنتو... كوبودي ستابي إن إيجبتو وفهمت هذه الكلمات على قلة معرفتي باللغة الإيطالية يومئذ... كان معناها:

- ملحق... ملحق.. انقلاب عسكري في مصر.

واشتريت الجريدة.. وقرأت..

وهرعت إلى محطة الإذاعة، وقابلت السنيور زافراني الذي كان مديرًا للإذاعة الإيطالية يومئذ. وإذا بالرجل يشد على يدي، ويهنئني قائلا:

- مبروك .. يبدو أنكم قد تخلصتم من الملك فاروق

وروي لي تفاصيل ما حدث..

وكان أول خاطر جاش بصدري يومئذ هو: هل يكون هذا هو الحدث الذي طالما حلمنا به- نحن شباب الإذاعة- دون أن ندري ماذا تكون صورته، وماذا يكون لونه، ولا متي يأتي؟

وقفز إلى خاطري بيت من قصيدة أبي القاسم الشابي- التي شطبها مستشار القصر- هو قوله للشعب:

إن - الحيـــــاة يـــــدوي حواليـــــك
فـــــأين المغـــــامر المقـــــدام؟

لقد أقبل هذا المقدام الذي حلم به الشاعر...إنه جمال عبد الناصر

وركبت القطار لفوري من روما إلى فينيسيا.. وركبت الباخرة (أسبريا) عائدا إلى القاهرة

وفي اليوم الثاني في عرض البحر.. كنت ساهرا فوق سطح الباخرة والليلة غير مقمرة حينما جاء قبطان الباخرة يشير إلى باخرة تسير في الظلام، وقال لي:

- أتري هذه الباخرة ذات الأنوار الخافتة.. المتجهة إلى أوروبا؟

أتعرف من فيها؟

قلت:- لا

قال:- ملك مصر السابق.. فاروق

قلت والفرحة تقفز من قلبي:- أتعني...

قال الرجل:- أجل.. لقد خلعته الثورة.

كأس... وكتاب... وفراشة

كلما رأيت المآس تعبر واحدة إثر أخري في حياة هذه الفنانة الكبيرة أحسست أنني نصف مسئول عن تعاستها، لأنني أنا الذي كنت – عن غير قصد – الجسر الذي عبرت فوقه الطريق من بيت الزوجية والأمومة، إلى دنيا الأضواء الباهرة الخادعة.

*****

زمان... أيام الشقاوة... وأنا طالب بالجامعة... كنت أعاكس طوب الأرض، إلى حد أن أصحاب المجلات الفنية كانوا يستغلون حبي للصحافة، ويحرضونني على فتح أبواب المشاكل في مجلاتهم وكنت – وأنا طالب – أحرر في إحدى المجلات الأسبوعية بابا ثابتا عنوانه: شكل للبيع!

وكانت المشاكل التى أعثر بها في طريقي كثيرة في أول الأمر.. فلما استمر الباب، أعوزتني المادة في بعض الأسابيع، فكنت أضطر إلى خلق المشاكل بنفسي على أنني لست أدري هل أنا الذي خلقت مشكلة الفنانة الكبيرة التي أحدثكم عنها اليوم، أم هي التي خلقتها، أم أن المشكلة هي التي خلقت نفسها.

*****

كنا في الصيف.. بالإسكندرية وكنت أجلس في كازينو (باستروديس) بشاطئ ستانلي، أيام كان هذا الكازينو قائما على الشاطئ مباشرة، وأيام كان الشاطئ ستانلي ملهي الحسان ومسرح الغانيات وتلفت حولي... أبحث عن مشكلة وكان الصيد الذي وقعت عليه، يتمثل في شابة في نحو العشرين... ذات جمال صارخ، تسدل نقابا شفافا جدا على قسماتها الحلوة، خوفا من أن تجرح خطرات النسيم خديها الناعمين كانت تجلس وحدها إلى مائدة، في الظهيرة، وفي يدها كتاب تقرأ فيه بنهم وإقبال وهي ترشف بين الفتية والفنية رشفة من كأس الويسكي التي أمامها، ولا تنتهي من كأس قبل أن تكون قد طلبت كأسا

أخري... أو كما يقول الشاعر الذي وصف هذا المشهد.. وأظنه أنا:

وشـــــكا الخـــــمار منهـــــا
ورأى الويـــــل وقـــــاسي
فهـــــو لا يرفـــــع كأســـــا
قبـــــل أن يمـــــلأ كأســـــا

كانت الصورة عجيبة، وحلوة تستحق المتابعة... شابة فاتنة... وغلالة على وجهها... وكأس وراء كأس... وكتاب... وركزت عيني على غلاف الكتاب وهو يتحرك بين يديها كلما غيرت موضعها على المقعد، لعلي ألتقط اسمه، لأعرف ماذا تقرأ، لأن المثل يقول: "قل لي ماذا تقرأ... أقل لك من أنت" غير أنني لم أتمكن... إلى أن جاء الجرسون يستدعيها للتليفون ونهضت من مكانها، وأكفأت الكتاب على الصفحة التي تقرأ فيها، فأصبح غلافه مواجها لنور الشمس وذهبت لتتكلم في التليفون... وقمت من فوري، فمررت بجانب مائدتها، وعرفت اسم الكتاب... أما مؤلفه، فلم أكن بحاجة إلى قراءة اسمه، لأنني أعرفه وأعرف كل كتاب ألفه، وكل سطر كتبه أنه من أقرب الناس إلى قلبي إنه الأديب والقصصي والشاعر... الذي قضيت معه – قبل هذه الواقعة بشهر واحد – ليلة كاملة أشهد فيها دموعه وهو يروي لي قصة حب كبيرة في حياته.. قصة حب انتهت نهاية حزينة، ترك حبيبته أطلال جسد، وتركته هو أطلال روح!(*)

وغادرت الشاطئ.. وذهبت لأكتب بابي الأسبوعي، وكان عنوانه "السيدة ذات النقاب" وظهرت المجلة... وبعد يوم واحد، كتبت السيدة ذات النقاب ردها على ما نشرت عنها وبعثت به إلى رئيس التحرير وأطلعني رئيس التحرير على هذا الرد، وسلمني إياه، للتصرف، وأحببت أن أشاكلها من جديد... فنشرت ردها، وعقبت عليه تعقيبا من نوع جر الشكل، وردت مرة أخري... وثالثة... ورابعة... وانا أعقب في كل مرة بقدر أكثر من الشقاوة والعفرتة... في تلك الأثناء، حدث حادث جانبي... قابلت صديقي الأديب القصصي، الشاعر.. وسهرت معه ولم يسكب دمعة واحدة في هذه الليلة.. بل كان على العكس، يكاد يطير من الفرحة بالحياة والحب... الحب الجديد... الذي أنساه مأساة

الحب الذاهب.

أقول... كان يحدثني عن حبه الجديد وهو يكاد يطير من الفرحة.. فلا أكاد أجد وصفا لفرحته أجمل من قول ناجي... الذي تغنيه أم كلثوم:

هـــل رأى الحـــب ســـكارى مثلنـــا
كـــم بنينـــا مـــن خيـــال حولنـــا
ومـــشينا في طريـــق مقمـــر
تثـــب الفرحـــة فيـــه قبلنـــا
وتطلعنـــا إلى أنجمـــه
فتهـــاوين وأصـــبحن لنـــا
وضـــحكنا ضـــحك طفلـــين معـــا
وعـــدونا فـــسبقنا ظلنـــا

ولم يذكر لي من تكون هذه الحبيبة الجديدة، وإن كان قد رسم لي سماتها رسما خفيفا.. وبالحاسة السابعة.. حاسة الصحفي.. أحسست أن هناك ارتباطا بين قصته وقصة صاحبتنا التي كانت تقرأ كتابه على الشاطئ.. "السيدة ذات النقاب" وتوكلت على الله... واعتبرت أن إحساسي لم يخب وكنت في الباب الأسبوعي التالي عنها وعنه... وتحدثت عن فرحته الجديدة بالحياة بعد هذا الحب... وبعد ما جرت عليه من اليأس ربة الحب السابق التي تحولت إلى أطلال جسد، وحولته إلى أطلال روح.

وكان صاحبي قد روي لي بعض ما كان بينه وبين حبيبته الجديدة – دون أن يذكر لي من هي – من وقائع طريفة، وتلا على بعض سطور من خطاب عاطفي ملتهب بعثت به إليه، دون أن يذكر لي اسمها.

من هذه الوقائع، أنها ذكرت له أنها مسافرة إلى الإسكندرية، لتصطاف، دون أن تذكر له أين تنزل في الإسكندرية وتركته على هذه اللوعة... ولكنه لم يخلد إلى اليأس هذه المرة، بل راح يجري ويتحري هنا وهناك؛ حتي عرف أين تقيم بالإسكندرية... وسافر إلى الإسكندرية، ولمح الشقة التي تنزل فيها، وجعل يلف ويدور ويبحث في العمارات

المحيطة بها، لعله يعثر على شقة تطل عليها... بأي ثمن... إلى أن اهتدي إلى بنسيون يطل على غرفة نومها تمام، وذهب إلى صاحبة البنسيون

- وطلب إليها غرفة تطل على تلك الواجهة، فاعتذرت له بأن الحمام والمطبخ وحدهما هما اللذان يطلان على هذه الواجهة فطلب إليها أن تضع له سريرًا في المطبخ، ينام عليه.. واستغربت السيدة هذا المطلب، وظنت أنه مجنون... ولكنه أبرز لها بطاقته، فعرفت شخصيته... فنان... والجنون فنون... والفنون جنون وقالت له:

- ولكن... لماذا لا تنزل في غرفة يا سيدي؟

قال: - المطبخ... وإلا فلا

- ولكني محتاجة إلى المطبخ طول النهار

- لا مانع... فإني لن أنام فيه إلا بالليل... ولك أن تستخدميه كما تشائين طول النهار.

وظلت السيدة مترددة... ولكن ترددها زال على الفور، حينما أعرب صاحبنا عن استعداده لدفع أجر مضاعف في سبيل المطبخ... أي أجر غرفتين، وقضي الأديب القصصي الشاعر الموهوب... أكثر من ليلة في المطبخ... ساهرا يطل على أمل حياته طول الليل!

أما الخطاب العاطفي الذي بعثت به إليه، وتلا على بعض سطور منه، فقد استطعت أن ألتقط منه في ذاكرتي بضع كلمات.. لا أزال أذكرها حتي الآن. كانت هذه الكلمات تقول: "ما قولك فيمن يمشي قلبها على الشوك، فيدمي وهو يسعي إليك.. ويعلم ظلام المصير.. ولكنه لا يبالي بأي مصير"؟!

*****

نشرت كل هذا ضمن ما نشرت من قصة "السيدة ذات النقاب".. دون أن أكون واثقا من أنها هي الحبيبة... إلا بمجرد إحساس.. عن طريق الحاسة السابعة وظهر المقال... وصدقت الحاسة السابعة... وانقلبت الدنيا.. وجاء صاحبي - الأديب القصصي الشاعر - يعاتبني عتابا قاسيا، ويعلنها قطيعة بيني وبينه.. على أن القطيعة لم

تستمر أكثر من يومين، فقد كان – رحمه الله – صاحب قلب من أطيب القلوب.

*****

أما صاحبتنا – السيدة ذات النقاب – فقد هرولت مرغية مزبدة إلى رئيس التحرير وكان صحفيا لبقا إلى أبعد حدود اللباقة... فجعل يهدئ من ثائرتها حتي اطمأنت إليه... وفتحت له قلبها... وروت له قصة حياتها، ومأساة الزواج التي تعيش فيها، وكيف أنها بسبيل الطلاق، لأنها لم تعد تحتمل هذه الحيـة الجافية وقال لها رئيس التحرير:

– ولماذا لا تغيرين هذه الحياة الجافية؟... لماذا لا تنطلقين إلى حياة حافلة بالمرح، زاخرة بالأضواء؟

– ماذا تقصد؟

– أقصد أن تشتغلي بالسينما

– وهل تراني أصلح لها؟

– وستكونين من ألمع الوجوه على الشاشة... وبينما هما يتحدثان، جاء زائر... وكان هذا الزائر فنانا كبيرا... ومنتجا كبيرا أيضـ وبهرته النظرة الأولي إلى وجه الشابة الحسناء وقال له رئيس التحرير:

– ما رأيك في هذا الوجه؟

ولم يتردد الفنان الكبير لحظة واحدة.. وقال:

– إنني مستعد أن أوقع معها عقدًا على الفور... وأنجز الرجل وعده، ووقع العقد على الفور!

*****

ونعود إلى حكاية المصير... إلى حكاية القلب الذي يمشي على الشوك، فيدمي وهو يسعي إلى الحب، ويعلم ظلام المصير، ولكنه لا يبالي بأي مصير... التقي العاشقان – بعد ظهور المقال – لقاء صاخبا... لأنه فضح قصة الحب، حتي باتت حديثا على وجوه الصحف،

وكان لقاء الوداع... وانتهت قصة الحب... وانتهت بعد ذلك قصة الزواج الشقي.

وعلي جسر ذلك المقال، الذي لم أقصد به إلا وجه الشكل، سارت السيدة ذات النقاب إلى دنيا الفن، لتصبح وجها من ألمع الوجوه على الشاشة. على أن طريق الفن لم يكن مليئا بالزهور.. فقد نجحت هذه الفنانة... ونالت الشهرة والمال.. ولكن حياتها تعرضت لكثير من المتاعب والمآسي والأحزان... وربما لو بقيت في بيتها.. لعاشت سعيدة إلى اليوم ولكنها كانت مثل الفراشة أرادت أن تحترق بالحب فتركت بيتها وأسرتها لتحترق.. ولكن بالفن!

obeikandl.com

محمد رضوان

- ولد محمد محمود رضوان بمدينة الجميلية – محافظة الدقهلية بمصر في ١٥ سبتمبر ١٩٤٨.
- حصل على ليسانس كلية دار العلوم جامعة القاهرة عام ١٩٧١ وعمل كاتبًا صحفيًا بمجلة الهلال منذ (١٩٧٣).
- عضو نقابة الصحفيين – عضو اتحاد كتاب مصر (جوال: ٠١٠٠٦٧٥٩٢٢٤ (مصر ٢٠٢).
- من الأدباء والنقاد الذين تناولوا مؤلفاته بالدراسة والنقد والتحليل (صالح جودت – أنيس منصور – أحمد عبد المجيد – عبد العليم القباني – د.مقداد يالجن – كمال نشأت – فاروق شوشة – محمد ابراهيم أبو سنة – حسن فتح الباب – د.ماهر شفيق فريد – د.يوسف نوفل).
- له خبرة في الصحافة الأدبية والسياسية، حيث عمل في سلطنة عمان رئيسا لتحرير مجلة السراج الأدبية (١٩٧٦ – ١٩٧٧)، (١٩٩٢ – ١٩٩٤)، ومديرا لتحرير مجلة (النهضة) السياسية (١٩٨٢ – ١٩٩٣).
- ابتدع لنفسه منهجًا أدبيًا في كتابة السير سماه (المنهج الوجداني) يجمع بين الموضوعية والعاطفية، بين التحليل الأدبي النفسي وذاتية الكاتب وذوقه الأدبي، وكانت بداياته القصصية هي التي ساعدته في تأصيل هذا المنهج، فوصفه السفير الشاعر أحمد عبد المجيد (حين يتولى محمد رضوان كتابة سيرة لشاعر من الشعراء نراه يدلف إلى روحه وإلى حياته وما اضطرب فيها من حال إلى حال،ويتشح برداء عصره الذي عاشه، ويتنسم ما كان يستنشقه، فتجيء ترجمته كظل الغصن أو رجع الصدي).
- له أكثر من ثلاثين كتابا في أدب السير منها: "صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك –

مأساة شاعر البؤس: عبد الحميد الديب – اعترافات شاعر الكرنك أحمد فتحي – شاعر الأطلال، ناجي – رحلتي مع القلم – عندما يحب الشعراء – شعراء الحب – شاعر الروابي الخضر: أحمد خميس – شاعر الهمسات: أحمد عبد المجيد" – شاعر الحب والحرمان: كامل الشناوي – الملاح التائه : علي محمود طه.

- **قام بجمع وتحقيق ودراسة:**

١- ديوان شاعر البؤس ، عبد الحميد الديب (المجلس الأعلي للثقافة)- القاهرة ٢٠٠٠.

٢- ديوان شاعر الجندول، على محمود طه (وزارة الثقافة)- القاهرة ٢٠١٠.

٣- ديوان شاعر الكرنك، أحمد فتحي (مكتبة جزيرة الورد)- القاهرة ٢٠١٢.

٤- شاعر الحب: صالح جودت (مكتبة جزيرة الورد)- القاهرة ٢٠١٢.

obeikandl.com